
رواية
نور
شريف حتاتة
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
مركز
المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

روايـــة

نــــــور

شريف حتاتة

رقم الإيداع : ٢٨٠٦ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى : ٨-٤٤٠-٣١٣-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٢



قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ - المقطم - القاهرة
ت، ف : ٠٠٢-٠٢-٢٥٠٧٥٩١٧
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
الغلاف: محمد زمزمى

الطبعة الأولى ٢٠١٢

روايـــة

نـــــور

شريف حتاتة

الطبعة الأولى ٢٠١٢

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

حتاتة، شريف.
نور / شريف حتاتة، - ط١.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠١٢.
ص ١٩٦ ؛ ١٤ × ٢٠سم؛
تدمك : ٨ ٤٤٠ ٣١٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص العربية
أ- العنوان
٨١٣
رقم الإيداع : ٢٨٠٦ / ٢٠١٢

الفصل الأول

انتهى عرض الفيلم، وتوالى ظهور التترات على الشاشة. ظل جالسًا فى مقعده، مستغرقًا فى موسيقى القيثارة، كأنه لا يُريد أن يفيق من الصور والمعانى التى عاشها. كانت الصالة مزدحمة بالرواد ظلوا جالسين دون حركة ثم قاموا وساروا فى نصف الظلام كالأشباح ينصرفون فى صمت إلى الخارج.

أُضيئت الأنوار فرآها جالسة وحدها فى الجانب الآخر من الصالة. قامت وهبطت الدرجات على مهلها قبل أن تخرج من الباب وتختفي. وقف بعد قليل وخرج وراءها. لمح قوامها المرفوع، وعنقها النحيل، وشعرا خطه الشيب ينسدل على جلبابها الداكن. شعور ما يقول له إنه يعرفها. إحساس بذكرى عادت حميمة، قوية من الماضي. أسرع الخطوة ليلحق بها لكنها انطلقت خارجة من الباب إلى الشارع، وبحركة من ذراعها أوقفت سيارة للأجرة. قبل أن تركب استدارت ونظرت إليه فرأى عينين خضراوين تبرقان فى الأضواء، ووجها ملامحه حادة.

سار على الرصيف إلى جوار النيل مخترقًا زحام الناس، خرجوا من بيوتهم لاستنشاق النسيم بعد يوم كانت حرارته خانقة. ترددت فى أذنيه

كلمات متفرقة تخرج من بين الشفاه سريعة، مخطوفة بلغة أجيال جديدة لا يفهم معناها، وصوت امرأة تضحك فى استرسال، صاعدًا فوق الأصوات، فزحف عليه الإحساس بالوحدة وسط الجموع ساروا كأنهم فى احتفال، برغبة فى أن يجد من يتحاور معه حول الفيلم الذى رآه.

عاد إليه وجه المرأة وهى تستدير لتنظر إليه كأنها أحست أنها تعرفه. عيناها تشبه عينى مصارعة الثيران فى فيلم "المودافار"، لكن لم يعد متأكدًا من لونهما. كان الشارع مُضاءً بالفوانيس الخضراء احتفالاً بشهر رمضان. لا.. عيناها ليستا خضراوين. الآن تتراءى فى خياله مقلتان سوادهما فاحم.

وجد نفسه عند كوبرى الجامعة. نظر إلى معصمه. الساعة تجاوزت العاشرة مساءً وغدًا سيسافر إلى الإسكندرية. لكن الليل يُغريه بالمشي. صور الفيلم ما زالت تتحرك أمامه، يتقاطع معها قوام المرأة وهى تسير أمامه بليونة رغم خطوط الشيب الفضية اللون فى شعرها يتدفق بغزارة، وعيناها تتسمران على وجهه قبل أن تستدير لتدخل إلى سيارة الأجرة أوقفتها بحركة آمرة من ذراعها.

اتجه ناحية مستشفى "قصر العيني" واجتاز الكوبرى الصغير إلى شارع "كورنيش النيل". عندما التحق بكلية طب الأسنان كان يركب دراجته فى الصباح من "إمبابة" ليذهب إليها. يجتاز هذا الشارع فيسقط الندى على وجهه من فوق الأشجار. ما زال يحفظ اسمها اللاتينى "فيكس بنجالنسيس"، فموطنها الأصلى "البنغال". تهبط منها فروع تدق جذورًا فى الأرض فيزداد رسوخها. أراد أن يدخل كلية الطب لكن مجموعه فى "الإعدادى" لم يسعفه، فدخل كلية الأسنان لكن سرعان ما هرب منها ليلتحق بالمعهد.

واصل السير وانحنى ناحية اليمين ليعبر شارع "قصر العيني" ويدخل إلى شارع "الشيخ ريحان". تكونت شبورة مبكرة هبطت من السماء فى

كثافة فأصبح كل شيء غامضًا. واصل السير مخترقًا الشوارع الخلفية إلى "ميدان عابدين". وجد نفسه أمام محل لعصير الفواكه خرج عليه سيراميكه الأبيض من جوف الليل. أصابته الدهشة. مرت السنين وما زال هنا فى مكانه، منزوٍ، وصغير كأن تواضعه حماه من العواصف. عند الخزينة جلس رجل جسمه يكاد يختفى فى معطفه العسكرى الواسع. فتح عينيه كالشقين فى الوجه الأسمر الضامر، فأطلتا عليه من بين التجاعيد. خاطبه قائلاً:

"مساء الخير. شوب عصير قصب كبير من فضلك".

حملق فيه الرجل لحظة طويلة قبل أن يسأل:

"شوب واحد واللا اتنين؟".

خطر فى باله أن الرجل لم يسمعه، فقال:

"لا شوب واحد بس يا ريس". ووضع أمامه ورقة نقدية بخمسين قرشًا.

"الشوب الكبير بقى بخمسة وسبعين قرش. سعر نقل القصب يا بيه."

أعطاه الباقى فناوله "فيشة" مستديرة من البلاستيك توجه بها إلى العامل المنتصب خلف "البنك" تهبط لحيته السوداء على صدر جلبابه. لمح فى عينيه فراغ المستغرق فى التعبد. وضع "الفيشة" أمامه فسحبها من فوق الرخام وأسقطها فى علبة، ثم أمسك بأعواد من القصب وحشرها بين تروس العصارة. بعد قليل عاد إليه حاملاً وعاءً معدنيًا يبرق فى ضوء "الفلوريسنت"، وصب منه العصير الفوار فى الكوب فحمله خارج المحل، ووقف على الرصيف يرتشف منه.

كانت الشبورة قد حطت على الميدان خانقة، فكادت مبانى المحافظة تختفي، وأصبح الناس والسيارات أجسامًا غامضة تظهر لحظة ثم تختفى

فى الظلال. مر بعض الوقت وهو واقف يرتشف ببطء، سارحًا فى شذرات مبعثرة كأن الشبورة أثقلت عقله، وفى لحظة بدا له أن عدد الناس فى الميدان يتزايد، أن جموعًا صارت تصب فى مساحاته، ثم أخذت تتقدم نحوه. لمح لافتات ترفرف، وقبضات تلوح، وأفواه تصرخ دون أن يصدر عنها صوت، وفجأة رأى أمامه رجلاً يُشبه "أحمد عبد الدايم" وإلى جواره امرأة شابة شعرها طويل. فى أذنيه تردد هدير خافت كالبحر البعيد المضطرب، ثم اختفى كل ذلك ولم يبق سوى عدد قليل من المارة، وسيارة تزحف ببطء تحت الضوء الغامض لمصباح يُطل من أعلى.

مسح على وجهه بمنديل من الورق كأنه يفيق، وأعاد الكوب الفارغ إلى مكانه فوق الرخام، ثم قال "تصبحوا على خير". سمع صوتًا يرد التحية قائلاً: "وأنت من أهله وما تنساش تسلم على الست "نور"، فالتفت ناحيته. لم يجد الرجل العجوز الذى كان يجلس على الخزينة، اختفى. أما العامل فكان منهمكًا فى ترتيب الأكواب والأدوات على رفوفها.

بحث عن علبة السجائر فى جيوبه ثم تذكر أنه توقف عن التدخين، فخطا فوق الرصيف واستأنف سيره متجهًا إلى شارع "بورسعيد" ثم إلى ميدان "باب الخلق". توقف فى الميدان وحملق فى اللافتة المعلقة على جدار منزل انهارت إحدى شرفاته، فلم يستطع أن يقرأها، لكنه انحنى فى الشارع كأن حدسًا فى أعماقه يقوده. أسرع الخطوة مارًا أمام فتحة ضيقة بين المبانى يرتفع منها سلم من الحجر إلى حوش واسع. فى الحوش لمح أطفالاً نصف عرايا يلعبون الكرة، وخلف الحوش "ربعاً" من الأبنية الصفراء اللون على نوافذها الكبيرة قضبان. بعد الفتحة بقليل مر على ورشة نجارة جلس أمامها رجلان. كان أحدهما يُدخن الشيشة بينما انشغل الآخر بالحملقة فى الشارع. خاطبه سائلاً "أين الرقم ٢٨"؟ أشار فى اتجاه "القلعة" بذراعه ثم تناول المبسم من زميله وسحب منه أنفاسًا.

استأنف السير متوقفًا بين الحين والآخر ليفحص الأرقام. لم يجد أغلبها في مكانها، لكن أثناء السير تنبه إلى مبنى عريض يُشبه "قشلاقات" العسكر. أسفل المبنى فرن "أفرنجي" صغير، فتأكد أنه أصبح أمام العمارة التي كان يبحث عنها. أعلى سلالم المدخل جلس الحارس. كان يرتدي عمة كبيرة تطل عيناه الحمراوين من تحتها بنظرة مستطلعة فيها نهم. على باب المصعد الحديدي ورقة لحم مُثبتة بقطعة من السلك كُتب عليها بحروف متعرجة "المصعد معطل"، فاتجه إلى السلم الصاعد في العمارة. أوقفه الحارس بصوت غليظ سائلاً:

"طالع لمين"؟

قال:

"للست أم هاشم".

"هاشم مين"؟

"هاشم شعبان".

"ده مش ساكن هنا".

"عارف. أنا طالع لوالدته".

أشار بيده وقال:

"الدور الثامن، أول باب على اليمين".

كانت درجات السلم متآكلة، ومنهارة في أجزاء منها، وكان الحاجز يهتز كلما ضغط عليه بيده، فصعد ببطء متحسسًا طريقه في الضوء الضعيف المتسلل من المصابيح المضاءة في بعض الأدوار. عند كل دور عتبة عريضة تمتد بالطول على الجانبين، وأبواب تنفتح عليها كلها مُغلقة. أمام بعضها وضعت أكياس نيلون ممزقة فيها قمامة. في الجو رائحة عفونة كريهة جعلته يُحاول كتم أنفاسه.

عند الدور الرابع بدأ يلهث، فتوقف ليستريح، ثم واصل الصعود حتى الدور الثامن. انحنى إلى اليمين ليتوقف أمام أول باب. كان نظيفًا، ومدهونًا بلون بنى لامع. من خلف زجاجه المغطى بستارة تسلل ضوء باهر.

ضغط على مفتاح الجرس فصدر عنه رنين تلاه صوت نسائى دافئ يقول:

"يا "صفية".. شوفى مين اللى دج جرس الباب. يمكن الواد أحمد ابن الجيران".

فُتحت الشراعة وأطل عليه وجه امرأة لم يتبين ملامحه بسبب الضوء القوى الآتى من خلفها. لاحظ أنها ترتدى نظارة زجاجها سميك. فحصته بنظرة مترددة فيها توجس قبل أن تسأله.

"عايز مين"؟

"الست أم هاشم".

"وحضرتك مين"؟

"قولى لها عزيز المغربي".

التفت خلفها وقالت:

"واحد اسمه "عزيز المغربي" عايزك يا خالتي".

ساد صمت طويل تخلله الهدير البعيد للشارع، ثم جاءه صوت الخالة أصابته رجفة.

"افتحى له يا صفية".

فتحت "صفية" الباب، وأفسحت له الطريق فدخل. وجد نفسه واقفًا فى صالة مُضاءة بضوء "للنيون" قوى. فى الصالة أريكتان أغطيتهما

فأحس بالبلولة فى أصابعها الرخوة وهى تقابل يده. قالت "أم هاشم": "بنت أختى "صفيّة". بتشتغل مُدرسة فى مدرسة السنيّة للبنات"، فأومأ إليها مُشجعًا. "شوفى الأستاذ "عزيز" يشرب إيه"؟

قال:

"متشكر.. ولا حاجة".

"لا.. لازم تشرب حاجة. عندنا عصير برتجان، وعصير جوافة. تحب نجيب لك إيه"؟

قال:

"طيب أشرب بُرتآن".

قالت:

"حتلاجيه طازة وحلو. يا سى "عزيز".. كان فى جلبى زعل منك حسيت إنه مش ممكن حيروح. كده تغيب المدة دى كلتها من غير ما تسأل عني؟ كنت خايفة أموت من غير ما أشوفك تاني".

ظل صامتًا ينظر إليها. سألته:

"إيه الى جابك الليلة دى"؟

تأمل سؤالها باحثًا عن إجابة.

"يُمكن تزعلى منى لكن ما أعرفش بالظبط. حاجة خلتنى أمشى من "المنيل" لحد هنا عشان أشوفك".

قالت:

"كده من غير سبب"؟

جاءت "صفية" حاملة صينية صغيرة وضعت عليها كوبًا من عصير البرتقال، فقالت:

بيضاء، وتليفزيون مرفوع على منضدة، ومقعد أسيوطى وُضع إلى جوار باب الشقة. على إحدى الأريكتين جلست امرأة سمراء البشرة، ممتلئة الجسم، شعرها الأبيض مربوط إلى الوراء كاشفًا عن جبهتها العالية، وعن ملامح فيها تحمل للألم الطويل. كانت ترفع قدمًا متورمة مربوطة بالشاش على طبلية منخفضة، قرصها مبطن. على الأرض فُرش كليم لونه داكن. استنشق رائحة ديتول.

ألقت إليه المرأة بنظرة صافية من عينيها البنيتى اللون، نظرة اختلط فيها الود، بالدهشة، والعتاب. مال عليها وقبلها على جبهتها ثم سأل:

"مال رجلك يا أم هاشم"؟

قالت:

"بسيطة. جُرحة طولت معاى شوية"، ثم أضافت بصوت تعثر فى النطق كأنها تحاول أن تتغلب على غصة فى حلقها، "أخيرًا جيت يا سى "عزيز".

وقف فى حيرة ينظر إليها. مدت إليه يديها فأمسك بهما. أحس بالخشونة فى كفيها. تذكر ملمسها المُريح عندما كانت تضعها على كتفيه وتنظر إليه متسائلة. قالت:

"اجعد هنا جنبى يا "عزيز"، فجلس. ألقت إليه بنظرة فاحصة قبل أن تُضيف: "كبرت.. كبرنا كلتنا". ثم التفتت ونادت المرأة الشابة التى فتحت له الباب واختفت بسرعة داخل الشقة.

"تعالى يا "صفية". مش تسلمى على الأستاذ "عزيز"، فخرجت بعد قليل من خلف الستارة التى تفصل بين الجزء الداخلى للشقة والصالة، قصيرة القوام، ملامحها عادية، تلف رأسها فى منديل وردى اللون، وتتأمله من خلف نظارتها بعينين جاحظتين قليلاً فيهما انسحاب. مد يده إليها

"اشرب البرتجان. يمكن تفتكر. لازم المشوار تعبك".

شرب كوب البرتقال عن آخره، وأعاده فارغًا إلى الصينية. قال:

"عصير حلو بصحيح".

"بالهنا والشفا. جوللى بجى إيه اللى جابك"؟

"مش عارف.. الحقيقة مش عارف".

قالت:

"لحجتني. مفيش جدامى وجت كتير".

"يعنى إيه"؟

"بيجولوا حاجة فى النخاع، إن جسمى ما عادش بيطلع كرات الدم الحمرا.. بيعملولى نجل دم كل شويّة.. الدكاترة يعني".

صمت من جديد ثم سألها:

"أخبار نور إيه"؟

أصبح وجهها الأسمر فى لون الجلباب الأبيض الذى كانت ترتديه، وارتعشت يدها وهى ترفع الياقة حول عنقها. قالت: "نور". ومسحت على شفتيها بلسانها كأن ريقها جف ثم أضافت وهى تنظر إلى قدمها المرفوعة أمامها: "ما أعرفش".

هتف:

"ما تعرفيش إزاي..؟ راحت فين"؟

قالت:

"جولت لك ما أعرفش.. جت لى يوم من الأيام وجالت لي: "جدتى عيانة جوى، وعايزة أسافر البلد أشوفها وأشوف أمى فى مستشفى "سوهاج". ومن يوميها ما سمعتش حاجة عنها. سألت ابن عمى اللى حضر

الجنازة وجعد شوية هناك. جالى إنه شافها مرة وإنها كانت مع النسوان اللى جم يعزوها. لكن ما كلمهاش". أخذت الدموع تسقط على خديها ببطء. مسحتها بمنديل، والتفتت إليه فرأى عينيها أصبح لونهما داكنًا، قبل أن تُضيف: "وجاللى كمان إنه بعد ما ماتت جدتها لجوا عمها عنتر مدبوح فى بيت عبد الجابر".

***

الفصل الثانى

استيقظ فجأة. التفت حوله باحثًا عنها. وجد نفسه راقدًا وحده فى السرير. بذل جهدًا ليستعيد تفاصيل الحلم الذى صحا منه. كان مستلقيًا على كنبة فى صالة كبيرة. الظلام دامس والنوم يزحف عليه، ويُثقل جفونه. أحس بها تتسلل إلى جواره، بدفء أنفاسها على وجهه. لفت ذراعيها حوله، وأخذته إليها وهى تهمس "باحبك يا "عزيز". أحس بجسمها يحتويه وانهمر فى أعماقه شلال اللذة مختلطًا بالألم. صرخ "يا ربي"، فأيقظته الصرخة من نومه.

دار بعينيه حول الحجرة. كان السرير الذى يرقد فيه عريضًا ترتفع عند أركانه أربع عواميد تحمل "ناموسية". أمامه قرب الجدار ارتفع دولاب كبير كانت إحدى ضلفاته نصف مفتوحة أطل منها ثوب قصير برتقالى اللون. تذكر أنها كانت ترتديه عند شاطئ البحر، فرآها وهى تسير فوق الرمال وتمد ساقيها الطويلتين بخطوة الجمل يقطع بها المسافات.

أحس بالبلولة بين فخذيه فتملكه الضيق. لماذا هذا الحلم بعد ما قصته عليه "أم هاشم"؟ أهى محاولة لمقاومة إحساسه بفقدانها؟ لو عادت

كانت ستسأله: ما الذى مر بخيالك بعد أن حكت ما حكته لك "أم هاشم"؟ هل خطر لك أننى متُ؟ هل أحسستَ بالراحة أم بالحزن؟ مرت سنين طويلة دون أن تسأل عنى. تألمت، لكن مرت الأيام وعفوتُ عنك. وأنت؟ ماذا فعلتَ بعد أن خرجتَ من السجن؟ هل تزوجت؟ كنت أقول لك دائمًا إننى لا أصلح للزواج. لماذا قررت أن تبتعد عني؟ هل خفت من الحياة التى عشتها، أم خفت من شيء آخر أخطر منه؟ تُرى هل نسيته؟ أحيانًا كان يُريد أن تنساه حتى لا يُؤنبه ضميره. شعور طارئ سرعان ما يتبدد، فمع الفراق زاد حبه لها. أخطأ عندما رفض سعيها لرؤياه. كان يحن إليها، إلى الشعلة الضاحكة فى عينيها.. اللعنة على عزة النفس. غدت ممثلة مرموقة يتهافت الناس لرؤياها. من يعلم؟ ربما عندما بعد عنها ارتاحت منه. إلى الجحيم بشكوكه الفارغة، فعندما كان فى السجن أوحى إليه "محسن شكرى" فى إحدى زياراته أنها أصبحت على علاقة "بأحمد عبد الدايم"، وبعد أن أُفرج عنه رآها مرة سائرة معه على كورنيش النيل فتوارى فى الزحام حتى لا تراه. لا بد أن هناك أشياء أخفتها عنه "أم هاشم" بالأمس. امرأة طيبة لكنها فيما يتعلق "بنور" كالبئر. على أى حال لم يكن مسئولاً عنها، أو وصيًّا عليها. كانت تُصر دائمًا على استقلالها، ألاّ التزامات عليه إزاءها.

دار بعينيه حول الحجرة. كان بينها وبين هذه الغرفة عشق. تقول: "هنا وهبت لك نفسي، هنا نقاء الحب، هنا لن يبحث عنك أحد منهم. "أم هاشم" أقرب إلىّ من أمى المسكينة. إنها الوحيدة التى لا تحكم علىّ. إلى جوارها أشعر أن الحياة بسيطة".

بالأمس قرب الساعة الثانية صباحًا أراد أن ينصرف. قالت "أم هاشم":

"عايز تروّح ليه؟ كنت بتبات هنا زمان، ودلوجتى خلاص مش عايز تجعد معانا ليلة"؟

لم يكن مقبلاً على العودة إلى البيت وأحس أنها ستكون سعيدة إذا وافق على البقاء. عندما ألحت عليه استسلم.

دخل في الحجرة لينام فوجد على السرير جلبابًا، ومنشفة تفوح منها رائحة صابون. خلع ملابسه وارتدى الجلباب. أزاح غطاء السرير واستلقى عليه، ثم أطفأ النور. حاول أن ينام لكن بدلاً من ذلك أخذ عقله يستعيد ما حكته له "أم هاشم".

"جت لنا في ليلة من الليالى وجالت أنا مسافرة البلد بكرة. ستى "عيشة" عيّانة وباين عليها هتموت جريب. وبعدها بكام شهر زارنا ابن عمى "محمود" وجاللى "إنه شافها هناك لكن بعد كده ما يعرفش راحت فين. كل شهر كانت بتبعتلى "شيك"، ولحد النهاردة ما وجفتوش. ولما أنت بعت لى "أحمد عبد الدايم" جاللى إنه سمع إنها سافرت بره، وأنا جُلت له على الشيكات اللى كانت بتبعتهالى لما حب يسيبلى المبلغ اللى إنت حطيته في الظرف مع مرسالك. وسمعت منه إنك خرجت من السجن، لكن بعد كدا إنت كمان ما أعرفش رُحت فين".

ظل يستمع إليها دون أن يُعلق فتوقفت عن الكلام ورمقته بنظرة فاحصة، ثم قالت:

"باين عليك تعبان. يالله جوم نام. بكره ربك يفرجها. عندك مانع تبات في الأوضة اللى كنتو بتناموا فيها"؟

قال:

"لا".

عيناه ما زالتا مفتوحتين في الظلام. بدا له كأن رائحتها ملتصقة بالوسادة، أنها تنظر إليه بعينيها اللوزيتين لكنها بعد ذلك اختفت. حاول

استرجاعها دون جدوى. أصبح يرى وجه "محسن شكرى" وهو جالس يُدخن الشيشة ويُحملق فيه قائلاً:

"أنا مش فاهم إنت بتحب فيها إيه؟ دى مومس". حل محله جمهور من الناس جالسين فى صالة وهى تطل من أعلى خشبة المسرح باحثة عنه بين الصفوف، ثم لمح بابًا داكنًا يُغلق عليه دون أن يصدر عنه صوت ليجد نفسه واقفًا وحده بعد أن خلت الصالة من الجمهور.

تردد فى أذنيه ضجيج أذان الفجر ينطلق من مكبرات الصوت، وبعدها سقط فى النوم.

***

الفصل الثالث

خلعت قميص النوم ووقفت أمام المرآة. تأملت جسدها العارى أسمر كطمى النيل، محروقًا فى الشمس، يرتفع مثل زهرة اللوتس فوق ساقيها. هذا الجسد المشدود فتح أمامها سبل الحياة. تحبه وتكرهه فى آن واحد، فهو مصدر الشقاء الذى تُعانى منه، هدف للعيون التى تغتصبه، والأيدى النهمة التى تمتد إليه. وليكن. لم تهبه لأحد دون مقابل. لم تُعطه مجانًا لرجال يبحثون عن ساعة متعة هربًا من التعاسة فى حياتهم، أو يتحدثون عن الحب، أو عن أى شيء يُخفون به أغراضهم. أخذت منهم الثمن واستخدمته لنيل ما تريده. رقدت تحت ثقل أجسامهم، وعقلها سارح فى كتاب قررت أن تبتاعه، أو محاضرة سمعتها عن "امرئ القيس" أو "ابن حزم"، أو عن دور تُريد أن تمثله، أو الغسيل الذى يجب أن تنشره ليجف. أعطتهم لحمها ميتًا فهم ضباع لا يضيرهم أكل الميتة فى شيء.

أحيانًا فى تلك الأوقات كان يصعد وجه أمها فى خيالها. ترى التقلص الذى يُصيب ملامحها عندما يُخاطبها زوجها قائلاً: "ياالله شهلى يا "توحيدة". عايزين ندخل ننام". كان سنها إذ ذاك أربع أو خمس سنين. قبلها لم تكن

تلاحظ هذه الأشياء. كانت طفلة صغيرة تتعثر فى مشيتها وهى سائرة فى الدوار الذى بناه جدها الكبير "عبد الجابر" من دورين. فى كل دور صالة واسعة مُحاطة بالكنب الأبيض. على أرضها أبسطة حمراء فيها أهرامات، وجِمال ترنو إليها من أطراف عيونها، وملاحق فيها فتحات تقود إلى غرف للنوم، فالأسرة كانت كبيرة. رجالها ونساؤها كثيرون. كانت قاماتهم طويلة، فهم فى الأصل من الرعاة يأكلون اللحم مرتين فى اليوم. تراهم أطول من أى ناس صادفتهم فى حياتها، وترى نفسها زاحفة بين الجلاليب الهابطة من أعلى، تطل من تحتها البُلغ الصفراء أو البنية اللون.

على مسافة قصيرة من الدوار أقام جدها مخازن، وزريبة، وإصطبلا للجياد، وغرفا للأفران، والمطابخ، وعند شاطئ الترعة بنى بيتًا فيه غرف قليلة كان يستقبل فيه خلانه من الأعيان ليقضوا معه السهرة، فبعد صلاة العشاء كانت تأتى إليهم العوالم خفية فى الحناطير. تدخل من البوابة الجانبية التى تنفتح على طريق خاص. يشربون "البراندى" القبرصى يبيعه له تاجر يونانى علمه المراهنة على سباق الخيل. هكذا مع الوقت بدد أغلب أملاكه، ولم يترك ميراثًا يُذكر فساءت أحوال الأسرة، ولم يبق لها سوى الدوار، فأخذ رجالها ينزحون إلى الإسكندرية، والقاهرة، ومدن أخرى، ثم لحق بهم النساء والأولاد.

كان أبوها "عسران" من بين النازحين. سافر وهى لا تزال طفلة عمرها ست سنين. لا تتذكر عنه إلا القليل. يده المعروقة الخشنة تربت على رأسها عندما يعود آخر النهار. صوته وهو ينشد المواويل، وعينيه الضاحكتين أسفل جبينه البارز. فيما بعد التحق به أخوها "إبراهيم" بعد أن انقطع عن المدرسة التى كان يتردد عليها.

هكذا جاء اليوم الذى خلا فيه الدوار من جميع أفراد الأسرة ما عدا ستها "عيشة"، وأمها "توحيدة" وأحد أعمامها كان يُدعى "عنتر" بقى

ليرعاهما، ويرعى ما تبقى للأسرة من مصالح قليلة. وبعد سنة من رحيل "إبراهيم" وصل إليهم خبر المأساة التى أودت بحياته، وبحياة أبيها. حريق فى مخزن للقطن بميناء "البصل" فى الإسكندرية حاصرهما مع آخرين وقضى عليهم.

أُصيبت أمها بحالة من الذهول أعجزتها عن القيام بأى شيء. كانت وفاة ابنها "إبراهيم" بالذات صدمة لم تحتملها فقد أنجبت قبله ولدين ماتا "بالشوطة"، ولم يبق لها سوى "إبراهيم" شابًا وسيمًا يتدفق بالحياة. أما هى فلم تكن إلا طفلة أنثى، كائنًا بلا قيمة.

بعد أن مرضت أمها حضرت إليهم "أم هاشم". أقامت فى الدوار لتعاون جدتها "عيشة" أُصيبت بالمياه البيضاء فى عين ثم فى الأخرى، فضعف نظرها بالتدريج. بمرور الأيام حلت "أم هاشم" محل أمها بعد أن أصبحت تائهة فى عالم لا يُشاركها فيه أحد. لكن لم تبق معهم "أم هاشم" سوى أربع سنوات ثم رحلت إلى "القاهرة" بعد أن عثر لها ابن عمها الموظف فى وزارة الأوقاف على عمل مع أسرة قبطية غنية تسكن فى "الزمالك".

لم تعرف شيئًا عن كل هذا إلا بعد أن رحلت عن الدوار، وأقامت فى "القاهرة" مع "أم هاشم". هكذا ظلت سنين الطفولة مُحاطة بالأسرار، بالجو القاتم للدوار يغط فى نصف الظلام بعد أن غادره رجال الأسرة ونساؤها وأطفالها، فخلت حجراته من مظاهر الحياة، وتحولت إلى ظلال، إلى كتل صماء، إلى صمت لا يقطعه سوى صوت الجرذان تجرى أقدامها أعلى عروق الخشب التى تحمل السقف، وصرخاتها الحادة تبث فيها الرعب.

مع ذلك شيء فى أعماقها حافظ على إشراقها تنطق به الصورة التى التقطها لها أخوها "إبراهيم" تطل منها الطفلة بعينين تبرقان كأن فيهما مصباح مضيء. صورة حملتها معها فى كيس ملابسها يوم أن رحلت خلسة عن الدوار، ووضعتها على رف فى حجرة النوم. عندما يتملكها شعور باليأس

تقـوم مـن جلسـتها لتتأملهـا. تهمـس لنفسـها: "هـذه هـى "نـور"، لا شيء يستطيع أن يُطفئ فى عينيها البريـق". تتـذكر نفسـها طفلـة تزحـف عـلى أحجار الأرض الخشنة للقاعـة التـى كـان يـتم فيهـا عجـن، وتبطـيط قُرَص الخبز، لتنتقل منها إلى أسفل الدرج فى الدوار. ترفع نظراتها إلى أعلى. تمسك بالحاجز بين يديها، وترتكز بعجزها عـلى أول درج، ثـم ترفـع سـاقيها عليـه. تُكرر هذه الحركة مرة، واثنتين، وثـلاث صـاعدة عـلى السـلم بـإصرار حتـى تصل قرب أعلاه، لتلحق بها جدتها وتنهرها بصوتها الهـادئ، فتـدفن وجههـا فى الثوب الأسود تناثر عليه الدقيق، وتستنشق فيه رائحـة حطـب، وحلبـة، ومستكة، وحبهان، رائحة تُوحى بالأشياء البسـيطة قضـت عليهـا المدينـة فى زحفها المحموم. ترفع رأسها، وتنظر فى عينيها فيهما مزيج من الطيبة والمكر حماها من غلو الرجال، فيلفها شعور بالطمأنينة تنسى معـه عـواء الـذئاب، وصراخ الجرذان، والخفافيش، والأشباح تتخفى فى ظلال الدوار.

مرت الأيام، وارتفعت قامتها. أصبحت مثل جـذع شـجرة يانعـة ترفـع رأسها للشمس، والهواء. لم يعد جسمها كالبوص ينمـو عـلى شـاطئ الترعـة. تدورت زواياه، وفى أعماقه سرت تيارات تُشبه طوابير النمل الزاحفة فى أرض دافئة، تيارات تُثير فيها رغبات لا تعـرف كنههـا، تُشـعرها بالحاجـة إلى شيء يُسكت النبض المُلح الذى يتردد فى أغوارها. أصبح ثدياها كالرمانة الصـغيرة، وغدت الحلمة تنتصب عندما تلمسها، ثم حدث لها ما أثار فيها الرعب.

فى ذلك اليوم اخترقـت الشـمس الفتحـة التـى نسـيت أن تُغلقهـا بـين ضلفتى الشيش عندما أوت إلى الفراش فاستيقظت مبكـرًا. ظلـت راقـدة فى السرير مستمتعة بشعور من الدفء، وبالخدر اللذيذ. على بعد قليـل منهـا كانت تنام جدتها فى سريرها فتعـودت أن تبحـث عنهـا لتطمـئن. فى أحيـان كثيرة كانـت جـدتها تقـوم قبـل الفجـر. تتوضـأ فى الحـمام ثـم تصلى عـلى السجادة الفارسية التى تركهـا الجـد "عبـد الجـابر" وراءه عنـدما رحـل عـن الدنيا. بعد ذلك تهبط على السلم لتقـوم بجولتهـا الصـباحية عـلى الزريبـة،

وعشـش الفـراخ، والأوز، والـبط، وأحـواض الـخضراوات التـى تُشرف عـلى زراعتها. لكن فى ذلك الصباح ظلت الجدة هى أيضًا راقدة فى سريرها. اليـوم السابق كان يوم إعداد الكعك احتفالاً بالعيد الصغير فتملكها الإرهـاق مـن الجهد الذى بذلته طوال النهار حتى غابت الشمس خلـف أشـجار الكـافور المزروعة على الطريق أمـام بيـت "عبـد الجـابر". أو ربمـا أحسـت إحساسًـا غامضًا أن حفيدتها ستحتاج إلى وجودها بجوارها.

انقلبت على جانبها باحثة عنها فلمحت الارتفاع القليـل للغطـاء فـوق جسمها. تدحرجت ناحية سريرها راغبة فى التحدث إليها فتنبهت إلى وجود بقعة حمراء على جلباب النوم. أصـابها الرعـب لكنهـا لم تقـل شـيئًا. ظلـت صامتة تُحملق فيهـا ثـم تسـللت مـن سريرهـا وتوجهـت إلى الحـمام عـلى قـدميها الحـافيتين. أغلقـت بابـه بحـرص وظلـت واقفـة دون حركـة تـدور بعينيها على الحوض، والصـنبور النحـاسي، والبشـاكير المعلقـة عـلى الحامـل الخشبي، والمغطس الضخم تصعد إليه درجتان من الرخام، وكتـل الصـابون المربعة والمستطيلة، والقباقيب الموضوعة أسفله. رفعت جلبابهـا وفحصـت "الكالسون" الطويل الذى كانت ترتديه فوجدته ملطخًا ببقع حمـراء. خطـر فى بالها أنها مُصابة بمرض خطير يجب لسبب لا تعرفـه أن تُخفيـه. أنقـذتها من إحساسها بالخوف والعجـز اللـذان سـيطرا عليهـا نقـرات خفيفـة عـلى الباب، وصوت جدتها المكتوم يُنادى عليها "نور.. نور".. افتحى يا بنتي".

بعد تردد فتحت الباب مُخفية جسمها العارى بالجلباب رفعته أمامـه. أطل عليها وجه جدتها وعيناها الصغيرتان فيهما لمعة. دفعت البـاب بيـدها وخطت خطوتين نحوها وهى تُلقى بنظرة فاحصـة عـلى الجلبـاب المرفـوع أمامها. اقتربت منها وربتت على كتفها، ثم مالت عليها وقالت:

"ما تخافيش يا بنتي. ده شـويّة دم بيصـيبوا البنـت البنـوت لمـا تكـبر. حينزلوا عليكى مرة فى الشهر يومين ولاّ تلاتة ويروحوا. ياالله ولعى الوابـور يـا

شطرة وسخنى شوية ميّه علشان تغسلى هدمتك وتتشطفي، بس إوعى تستحمي، وأنا حجيبلك جماشة حوريكى تعملى بيها إيه".

مرت الشهور وتعودت على التبدلات الحادثة فى جسمها. لكن شيئًا آخر أخذ يبث فيها القلق. عينا عمها "عنتر" أخذت تستقران على مواضع من جسمها عندما يراها وهى تصعد السلم، أو تجتاز الحوش سائرة إلى الزريبة لتحلب الجاموسة، أو لتملأ صفيحة مياه من الطلمبة، أو عندما تميل بالفأس لتُزيل الحشائش من أحواض الخضار، أو "لتلحف" القناة الممتدة من الساقية داخل حوش الدوار، أو إذا جلست القرفصاء أمام طبليّة لتُساعد جدتها فى تنقية الأرز. كانت تلمح فيهما نظرة تُثير فى أعماق جسمها رعشة اختلط فيها الخوف بشيء آخر عجزت عن تحديده.

كان عمها "عنتر" الوحيد فى الأسرة الذى لم تعل قامته. كان مربع الجسد تبدو فيه قوة غير عادية. نظرة عينيه بليدة، مُطفأة تظهر فيها لمعة قاسية إذا غضب، وتطل منها أحيانًا رغبة نهمة كالحيوان الجائع الباحث عن طعام.

كانت تتفاداه. ولم يكن هذا صعبًا فكان حضوره إلى الدوار نادرًا. يقضى أغلب وقته فى بيت "عبد الجابر" ولا يُطلع أحدًا على ما يفعله هناك. لم تكن تُثار سيرته فى الأحاديث التى تدور بينها وبين جدتها، أو بينها وبين "أم هاشم" عندما كانت فى الدوار. إذا نطق أحد باسمه تصمتان. لكن فى إحدى الليالى وهى تجتاز الحوش حاملة صفيحة مياه على رأسها لمحت امرأة تخرج إلى الشرفة فى بيت "عبد الجابر"، ثم تعود إلى الداخل بسرعة كأنها تنبهت إليها. كان جسمها ضخمًا، ملفوفًا فى ثوب بنفسجى اللون. لم تحك ما رأته لأحد فى الدوار. كانت تعلم أنه أرمل بعد أن ماتت ابنة العبد الطباخ التى تزوجها بعد سنتين من الزواج، وأنه عندما ماتت رفض أن يدفنها فى جبانة الأسرة، فتولى أبوها دفنها فى جبانة القرية وفى تربة مُخصصة للنساء العبيد من أسرته.

رغم كل ذلك كانت هناك مهمة متعلقة به أصرت جدتها أنه من واجبها القيام بها، مهمة اعترضت عليها دون جدوى.. أن تحمل إليه طعامه مرتين فى اليوم على صينية من النحاس مغطاة "بمشنة" من الخوص تضعها على شرفة البيت الذى يُقيم فيه، وتعود إلى الدوار بالصينية التى تركها بعد أن تناول ما فيها.

هكذا سارت حياتها. تقوم بأعمال مختلفة لكن لا تخرج من سور الدوار، ولا تتحدث مع أحد سوى جدتها، أو "أم هاشم"، أو مع أمها قبل أن تُصاب بحالة الذهول التى أصابتها، وأحيانًا مع بعض النسوة من القرية تحضرن للمساعدة أو فى المناسبات. هذا ما عدا رجلاً واحدًا، مدرس شيخ اتفقت معه جدتها على الحضور أربع مرات فى الأسبوع حتى يُعدها لامتحان الشهادة الابتدائية، فقد حرصت المرأة الأميّة العجوز على تعليمها. تقول: "يا بنتى ربنا حينادينى فى يوم من الأيام والدوار حيروح لعمك "عنتر" لأنه هو اللى فيه".

لم يتضح لها ما تسعى جدتها لتحقيقه بالنسبة إليها، فهى لم تفصح لها عما يدور فى ذهنها. تعرف أنها ظلت على صلة "بأم هاشم" فى "القاهرة". مرة فى الشهر تُملى رسالة على الشيخ المدرس ثم تضعها فى مظروف وتطلب منه حملها إلى صندوق للبريد. تشعر أنها لا تأمن جانب عمها "عنتر". مع ذلك كانت تُصر على إرسالها إلى بيت "عبد الجابر" لتحمل إليه طعامه. تقسو عليها بشدة إذا أطلت من بوابة الدوار، لكن فى الوقت نفسه تحرص على تعليمها. إذا تمردت تنظر إليها وتقول: "بكره حتفهمى جدتك "عيشة" يا بنتي".

***

الفصل الرابع

اشتد البرد القارس فى تلك السنة كأنه أراد أن يُعوض عن الحر الذى ساد طوال أشهر الخريف، فلفت حول جسمها حرامًا من صوف الجمال كانت ترتديه جدتها "عيشة" قبل أن تنحني، وينكمش قوامها. أحكمت إغلاق الشال حول عنقها ورفعت صينية الأكل على رأسها ثم خطت خارجة من الباب إلى الحوش.

فى الصباح أخبر عمها "عنتر" أمه أنه دعا أحد الضيوف لتناول العشاء معه فى المساء. قال لها إن الرجل تاجر أغنام من "سوهاج" يُريد شراء قيراطين من الأرض عند السور الغربي للدوار. نضبت مواردهم، وانقطعت المبالغ المالية التى اعتاد أن يُرسلها إليها أحد أبنائها النازحين إلى "الإسكندرية" فقررا اللجوء إلى بيع أرض الدوار على أجزاء. أثناء الحديث الذى دار بينهما وهما جالسان على دكة فى الشمس طلب منها إرسال صينية الأكل الذى ستُعده للضيف بعد صلاة المغرب، وليس ساعة العصر.

لم تسمع شيئًا عما دار بينهما إلا فيما بعد. انشغلت طوال اليوم بتلقى الدروس على يد مدرسها الشيخ فاستعانت جدتها بامرأة فلاحة

اسمها "أم بهيّة" تأتى أحيانًا لتعاونهم بعد نزوح نساء الأسرة للالتحاق بأزواجهن. كانت امرأة خشنة الملامح، مربعة الجسم لم تلد ذكورًا فطلقها زوجها، وأصبحت تعتمد "على ذراعها" بعد أن رفضت أن تلجأ إلى أحد من أفراد الأسرة ليساعدها.

انتهيا من إعداد الطعام، و"تبييض" جوالين من الأرز ابتاعهما عمها "عنتر" فأعطتها الجدة ما هو "فى النصيب"، وصرفتها لتعود إلى كوخها على أطراف القرية. كانت الساعة قد قاربت على المغرب عندما كتبت آخر كلمة فى كراسة الإملاء، وأعطاها الشيخ واجبات الغد. أحست بالجوع لكن وهى تتأهب لإحضار رغيفٍ من الخبز الشمسي، وبصلاً، ومشًّا نادتها جدتها لتخبرها بوجود الضيف مع عمها، ولتطلب منها إخراج الطواجن التى تركتها فى الفرن لكى تضعها على الصينية وتحملها إليهما.

عندما خرجت إلى الحوش كان القمر يصعد فى السماء ليطل عليها بدرًا مكتملاً يُلقى بضوئه على المساحات الممتدة أمامها. تردد همس خطواتها فى الصمت لا يقطعه سوى نباح كلب سكت بعد قليل. كانت قد تعودت على السير فى الحوش أثناء الليل فكثيرًا ما تُرسلها جدتها للاطمئنان على جاموسة سمعت خوارها، أو للتأكد من أنه لا يوجد ثعلب يحوم حول عش الفراخ والبط ،أو لملء صفيحة مياه من الطلمبة عندما تتعطل ماكينة الضخ العتيقة التى ترفعها إلى الخزان الموجود على السطح. لذلك لم يكن يُخيفها الظلام. تعودت أن تُبدده بحمل لمبة من الكيروسين، لكن فى هذه الليلة لم تكن فى حاجة إليها، فضوء القمر جعل كل شيء واضحًا أمامها. مع ذلك منذ أول خطواتها سيطر عليها شعور بالتوجس، لم تعرف له سببًا، وأخذ يزيد كلما توغلت فى السير، كأن هناك خطرًا غامضًا يتربص بها.

بعد أن اجتازت ما يقرب من نصف المسافة إلى بيت "عبد الجابر" فكرت فى العودة من حيث جاءت. كان قلبها يخفق بشدة لكنها واصلت

السير، فماذا تستطيع أن تقدمه كحجة لجدتها إذا ما عادت بالصينية وهى تعلم أن عمها "عنتر"، وأهم منه الضيف ينتظران العشاء الذى تحمله إليهما، وأن جدتها ستنتظرها جالسة على الكنبة فى الدور الأرضى ليصعدا سويًا، ويلحقا بأمها سبقتهما إلى سريرها فى غرفة النوم الخاصة بها؟

جاءها نعيق البومة التى تُعشش أعلى شجرة الجميز قرب غيط البرسيم الحجازى. كانت تسمع نعيقها كلما صعد القمر ساطعًا فى سماء الليل. أصبح هذا الصوت، مثل غيره من الأصوات، عاديًّا بالنسبة إليها. لكنه تكرر مرة ثانية، وثالثة، ورابعة فى إصرار. تعثرت قدمها فى قطعة من الحجر فتأرجحت الصينية المحمولة على رأسها. استعادت توازنها بسرعة، وضغطت بقبضتيها على طرفها المرتفع قليلاً خوفًا من سقوطها. أخذت نفسًا عميقًا وأسرعت الخطوة لتجتاز المسافة المتبقية للوصول إلى البيت. تركت الخف الذى ترتديه عند أسفل السلم، وصعدت الدرجات الخمس إلى الشرفة. أنزلت الصينية من على رأسها ووضعتها على الطبلية، ثم كما تعودت استدارت لتبحث عن الصينية التى كان يتركها عمها بعد تناول إفطاره، وقبل أن يخرج فى جولته الصباحية إلى جوار الترعة ممتطيًا مهرته الرمادية اللون التى رفض الاستغناء عنها رغم قلة الموارد المالية المتبقية لديهم.

فجأة أحست بذراعين قويتين تلتفان حول خصرها، وتجرانها داخل البيت. سمعت صدمة الباب يُغلق، وشعرت بأنفاس تتردد خلفها كأن حيوانًا يقبع فى الظلمة، بقبضة الذراعين تضمانها إلى جسم رجل انقض عليها عندما استدارت لتبحث عن الصينية. لم تقاوم، ولم تصرخ. أُصيبت بما يُشبه الشلل منعها من التحرك، أو الصياح، من فعل أى شيء. شعرت بجسمها يسقط من أعلى ليقع على سرير، بأياد تشد على الشال وعلى الحرام وتخعلهما من عليها، ثم ترفع جلبابها، بشيء كالإصبع الكبير يُحاول

الدخول بين فخذيها، يصحبه صوت ثيابها وهى تتمزق. أخذت تصرخ صراخًا حادًّا متواصلاً، وتُحاول دفع الأيدى الممسكة بها بعيدًا عن جسمها، لكن هبط كف غليظ على فمها وكاد أن يكتم أنفاسها، والتفت حول ذراعيها، وساقيها أياد أخرى، وكأن كائنًا متعدد الأطراف كالأخطبوط هو الذى انقض عليها، فأدركت أنه يُوجد أكثر من رجل. أخذت ترفس بساقيها حتى تفك قبضة الأيدى الممسكة بها، لكن رقد عليها جسم ثقيل، وأبعد ما بين ساقيها بالقوة. شعرت بشارب يحتك بخدها، بشعر خشن على بطنها، بأنفاس تلهث مع صعود وهبوط الجسم الراقد عليها، بشيء يخترق ما بين فخذيها وبألم كالسكين الحاد فى الجزء الأسفل من بطنها اخترقها صاعدًا إلى رأسها. ثم سقطت فى بئر اللاوعى المظلم ولم تعد تشعر بشيء.

أفاقت إلى نفسها راقدة على تراب الحوش. فتحت عينيها على القمر ينظر إليها كأنه عين السماء اللامبالية تتنصل منها، فتملكها شعور قريب من الدهشة. سرت فى جسمها برودة الأرض فأصابتها رعشة. أحست بالألم تركز فى مكان أسفل بطنها كأن جلدها نُزع عنه. مرت بيدها على موضعه لتهتدى إلى الجرح، ثم على أجزاء من جسمها تعرت تحت الجلباب الممزق. بحثت عن الحرام لتُغطى به نفسها لكنها لم تجد سوى الشال مُلقى إلى جوارها. رفعت جذعها عن الأرض وهى تستند إلى إحدى يديها، ولفت الشال حول رأسها وصدرها باليد الأخرى. بذلت جهدًا حتى وقفت على قدميها مستعينة بكفيها الاثنتين وضعتهما على الأرض ثم على ركبتيها فأصابها دوار، وكادت تسقط. تمالكت إلى أن استعادت توازنها. سارت بخطوات مترنحة فى اتجاه النور المنبعث من نافذة فى الدور الأعلى للدوار. قبل أن تصل إليه شعرت بساقيها تميدان من تحتها فتوقفت، وأخذت تلمسهما كأنها تُريد أن تطمئن أنهما تستطيعان حملها، ثم انتقلت بلمساتها إلى جسمها. صعد سائل مُر إلى حلقها، وأُصيبت بالغثيان كأنه

أصبح ملوثًا. كانت الدموع تسقط من عينيها فتحول دون أن ترى أمامها لكنها واصلت السير بخطواتها المترنحة إلى أن وصلت إلى الدوار. اجتازت القاعة الخارجية والصالة فى الدور الأرضي، وتوقفت أسفل السلم لحظة طويلة قبل أن تبدأ فى الصعود وهى تستند إلى الحاجز بكلتا يديها.

وجدت جدتها جالسة على كنبة فى الصالة وإلى جانبها "كلوبًا" مُضاءً كأنها كانت تتأهب للخروج. عندما رأتها قامت وتقدمت نحوها فارتمت عند قدميها وهى تبكى بصوت عال، وظلت الجدة واقفة دون حركة تنظر إليها.

***

الفصل الخامس

عندما ساروا فى الحوش كان ظلام الليل دامسًا. طوال النهار تراكمت السحب الغاضبة بدت حبلى بعاصفة ستنفجر لتُسقط سيولاً من المطر على القرية الراقدة فى حضن الجبل. لكن المطر ظل محبوسًا فى أعماقها فتحولت إلى غطاء ثقيل ربض على أنفاسها.

فتحت "أم بهية" البوابة الخلفية فاخترق أنينها العجوز صمت الليل. أحست بيد جدتها فى ظهرها تستعجل رحيلها قبل أن يبزغ الفجر. خطت إلى الخارج كالعمياء تتلمس طريقها، وكادت تقع، فامتدت يد "أم بهية" إلى ذراعها وقادتها نحو شيء كالشبح الرمادى اللون انزوى فى ركن من الحارة. عندما اقتربا منه تركت ذراعها وانحنت لترفعها بحركة قوية فوقه، ثم قفزت وراءها ولكزت بطن الحمارة بكعبيها فانطلقت مسرعة فى الظلام. أحست بذراعى "أم بهية" تلتفان حولها. تركت نفسها لحضنها كأنها تحتمى به، فمالت عليها وهمست فى أذنها: "ما تخافيش يا نور عيني. مش حسيبك إلا لما تركبى الجطر بتاع "مصر."

علقت فى أذنها كلمة "مصر". بدت أنها جزء من الكابوس الذى عاشته طوال الأسابيع الماضية، أنه مكان ستعيش فيه منبوذة إلى الأبد. عادت إليها

نظرة جدتها وهى تحملق فى جسمها الممدود عند قدميها تعرت أجزاء منه حيث تمزق جلبابها، وملامحها تطل عليها فى جمود، وكأن الحركة المتأرجحة للحمارة صعّدت هذه الصور من أعماقها لتتضح لها قسوتها.

سؤال يُلح عليها، يدور فى دوائر مفرغة فتحاول دون جدوى أن تطرده من ذهنها. إنها لم تُخطئ فى شيء. نفذَّت ما كانت تطلبه منها، أن تذهب يوميًا إلى بيت "عبد الجابر" حاملة صينية الطعام على رأسها. فلماذا هذا التغير إزاءها؟ طوال السنين ظلت ترعاها بحب، والآن تُجبرها على الرحيل من دارها.

بدأ نور الفجر يزحف على السماء، فأضاء الجامع الذى اقتربا منه. على مسافة قصيرة لمحت إحدى بنات القرية واقفة وحدها كأنها تنتظرهما. هبطت "أم بهية" من على ظهر الحمارة، وأنزلتها، ثم تبادلت بضع كلمات مع البنت قبل أن تمتطى الحمارة وتبتعد عنهما سائرة فوق الجسر.

جلسا على دكة وُضعت أمام كشك لبيع الخبز كان لا يزال مغلقًا. بعد قليل توقفت أمامهما سيارة بيضاء اللون أطل منها سائق لف رأسه فى "كوفية" فلم تتبين ملامحه فى الضوء الشاحب. قامت "أم بهية" واقتربت من السيارة. سمعتها وهى تخاطبه قائلة:

"ياسطى "مرزوج" الست "عيشة" اتفجت معاك إنك توصلنا لحد محطة الجطر فى "أسيوط"، وأنه مفيش ولد تانى يركب معانا. ودلوكيتى جى تجللى لع".

فأشار الرجل إليهما دون أن يرد وقال: "اركبوا".

كانت المحطة مزدحمة بعشرات الناس يتحركون من مكان إلى مكان، أو يجلسون على الدكك، أو ينتظرون واقفين فسيطر عليها القلق وإحساس بالضياع. فى الدوار لم تكن ترى سوى ستها "عيشة"، وأمها، وبعض النسوة

اللائى تحضرن بين الحين والآخر. تُرى هل ستعيش الآن وسط هذه الحشود؟ تذكرت فجأة أن عمها "عنتر" اختفى من الدوار فأخذت تبحث عنه بين الوجوه. تخيلت أنه ربما يأتى وراءها، فبعد قليل ستصبح وحدها. ستتركها "أم بهية" لتعود من حيث جاءت. أصبحت فى عالم لا تعرف عنه شيئًا، محاطة بناس غرباء عنها. تحت ضلوعها استقر شيء ثقيل كالحجرة تنقلب كلما فكرت فى مصيرها فهى لا تعرف أين سيقودها، ثقل سقط ما بين ساقيها وصار ينبض بالألم. أصبحت تكره الجزء الأسفل من بطنها، وعندما تتعرى تتفادى النظر إليه. إنه يلوثها، يجعلها تشمئز من جسمها. لوكان يمكن أن تتخلص منه، أن ينفصل عنها! قبل تلك الليلة كانت تستمتع بلمسه وهى راقدة فى السرير. الآن تريد أن تبتره بسكين.

ظلت غارقة فى أفكارها ففوجئت بالقطار مقدمًا عليها كالوحش الذى سيسحقها. كادت تصرخ، لكنه مر أمامها حيث كانت تجلس إلى جوار "أم بهية" انشغلت بالتهام السميط والجبن اللذين اشترتهما من أحد الباعة الجائلين فى المحطة، فتركتهما على الدكة. قامت وأمسكت بذراعها لتجرها بسرعة نحو فتحة فى إحدى العربات. أخذتها بين ذراعيها والدموع تسقط من عينيها، ثم ساعدتها فى الصعود على السلم إلى العربة.

سارت فى الممر إلى أن وجدت مكانًا خاليًا إلى جوار النافذة فتتبعتها "أم بهية" من على الرصيف حتى جلست على المقعد. كانت تتحرك كأن جسمها انفصل عنها، كأنها فى حلم جعل كل الأشياء غائمة فى ذهنها. قبل أن يتحرك القطار لمحت "أم بهية" وهى ترفع وجهها إليها والدموع تتدحرج من عينيها لتسقط على خدها الأسمر. أفاقت على العربة وهى تقفز قفزات فجائية إلى الأمام، وتبدأ فى التقدم ببطء، فاختفى وجه "أم بهية" لتحل محله جدران البيوت، وشبابيكها. بعدها وجدت نفسها وهى تطل على حقول خضراء، ومياه تجرى فى ضوء الشمس. شعرت أنها تتخلص

بالتدريج من الإحساس بأنها كالغارقة تحت الماء، إنها الآن تعود إلى سطحه، تتنفس فى المساحات الواسعة الممتدة أمامها، وفى لحظة تملكتها الفرحة كأنها أفلتت من حصار مُظلم. فقد عاشت الأسابيع الأخيرة فى الدوار كأن الموت أصبح وشيكًا، كأنه يسحبها من الدنيا خطوة بعد خطوة، أو كأنها سقطت فى غيبوبة لن تعود منها، لا تصل إليها فيها سوى شذرات من الحياة الدائرة حولها، صوت "أم بهية" وهى تنادى جدتها، أو باب الدوار عندما يُغلق آخر النهار، أو عينى الغراب الصغيرة اللامعة عندما يتتبعها من أعلى سور الدوار.

أثناء هذه الفترة أصبحت ستها "عيشة" تقضى أغلب وقتها جالسة على الكنبة فى الصالة تحملق فى الفراغ. راحت عنها حيويتها الطبيعية. قبل الليلة التى رحلت فيها بثلاثة أيام نادتها بعد الإفطار الذى أصبحت تتناوله وحدها، وأجلستها إلى جوارها، ثم دون مقدمات أبلغتها أنها قررت أن تُرسلها إلى "القاهرة" لتُقيم مع "أم هاشم"، وتكمل تعليمها، لكن نظرًا لظروفها الصعبة لن تستطيع أن تتكفل بمصاريفها، وعليها أن تدبر أمورها عندما تستقر هناك، أنها كتبت "لأم هاشم" التى رحبت بقدومها، وأنها اتفقت مع "أم بهية" على توصيلها إلى محطة القطار دون أن يشعر أحد برحيلها.

خلعت الخف الجلدى الذى كان قد ابتاعه لها أبوها وأرسله إليها من الإسكندرية قبل وفاته بشهر، ورفعت ساقيها تحتها على المقعد. أمامها كان يجلس رجل ارتدى معطفًا فاتح اللون. كان أنفه كبيرًا، وشعره أشيب تطل بعض شعيراته الطويلة من فتحة أذنيه. فحصته بنظرة متلصصة فقد حذرتها "أم بهية" من رجال يصطادون البنات لتشغيلهن فى أعمال سمعتها سيئة، فقررت أن تنفذ ما أوصتها به وهو ضرورة الابتعاد عنهم، دون أن تعرف ما كانت تقصد إليه، أن تمتنع عن الحديث مع أى رجل فى القطار أو حتى بعد أن تهبط منه. لكن الرجل الجالس أمامها رغم أنفه الكبير وشعره

الأشيب لفت نظرها، ففى لحظة من اللحظات خلع النظارة التى كان يرتديها ليقرأ فى كتاب أخرجه من حقيبة لليد جلدية، ونظر إليها فرأت عينيه. كانتا واسعتين، ولونهما العسلى فيه رقة الشمس عندما تهبط آخر النهار، وكانت تُحيطهما رموش طويلة سوداء تُؤكد الصفاء المطل منهما، ودون أن تُدرك تبددت نصائح "أم بهية" كالدخان أمام الريح كأنها لمحت فيهما شيئًا كانت تحتاج إليه فى هذه اللحظة. أو ربما هو الحنان المتسائل الذى قرأته فى نظرة عينيه استقرت بهدوء على وجهها، فأزالت الحذر والشك اللذين تحصنت بهما. لذلك لم تشعر بالخوف عندما خاطبها قائلاً:

"أنت مسافرة وحدك يا بنتي"؟

خطر فى بالها أن تُنكر هذه الحقيقة ثم أدركت ألا طائل من الإنكار فمن الواضح أنه لا يوجد معها أحد. قالت:

"نعم مسافرة وحدى".

"أهذه أول مرة تسافرين فيها"؟

"نعم أول مرة".

تأمل إجابتها كأنه يقلب ما قالته فى ذهنه.

"إلى أين يا بنتي"؟

"إلى "مصر"، وأضافت بنوع من الزهو، "سأكمل تعليمي".

"هل سينتظرك أحد فى المحطة"؟

"لا.. معى العنوان الذى سأذهب إليه".

ظهرت على وجهه علامات الدهشة. هرش رأسه بأصابعه ثم قال:

"على أى حال. ما زال أمامنا وقت للتفكير فى الأمر قبل أن نصل "محطة مصر".

لم تفهم ما الذى قصده. لكنها خجلت من أن تسأله. انصرف عنها وأخذ يتتبع الحقول بنظرة سارحة. لم تكن قد تناولت شيئًا منذ أن أيقظتها جدتها قبل الفجر؛ فأحست بالجوع. فتحت الكيس الذى ظلت قابضة عليه بيديها الاثنتين وأخرجت منه فطيرة ملفوفة فى قطعة من القماش. قسمتها إلى ثلاثة أجزاء، احتفظت بجزء منها ولفت الجزأين المتبقيين فى القماش. أعادت اللفة إلى الكيس ثم أخذت تقطع لقيمات من الفطيرة وتمضغها ببطء. توقف القطار بعض الوقت قبل دخوله إلى إحدى المحطات فأخذت تتأمل مجموعة من البنات تجمعن عند شاطئ قناة لتغسلن الأوانى. سمعت صوت الرجل يسألها:

"ما اسمك يا شاطرة"؟

التفتت إليه. أحست بالاضطراب، فلم تُجبه على الفور. واصلت المضغ كأنها تُفكر فى سؤاله. قالت:

"اسمى "نور".

أخرج "ترموساً" كان وضعه فى الركن قرب مقعده وصب منه شايا باللبن فى الغطاء ثم قدمه إليها وهو يُعلق قائلاً:

"اسم جميل.. هذا شاى باللبن ساخن. اشربيه مع الفطيرة".

لم تعرف كيف تتصرف. نظرت حولها فى حيرة، فظلت يده ممدودة إليها بالكوب. ابتسم وقال:

"على راحتك يا بنتي. ربما لا تريدينه الآن". ارتشف رشفات سريعة من الكوب ثم لفه حول عنق "الترموس"، وأعاده إلى مكانه قرب المقعد.

بعد أن أكلت أحست بجفونها تثقل فأخذت تغفل لمدة لحظات، لكنها عجزت عن النوم. صوت احتكاك العجلات بالقضبان، وطرقعة الباب الذى كان يمر من خلاله الركاب، وصراخ طفلة لم يتوقف إلا لفترات قليلة،

وقبل كل ذلك فوضى الصور والأفكار التى ظلت تمر فى ذهنها جعلتها فى حالة من اليقظة المرهقة طوال الرحلة، فقضت أغلب الوقت فى حالة ما بين اليقظة والنوم، إلى أن أحست بحركة غير عادية بين الركاب، وفتح الرجل الجالس أمامها عينيه بعد أن ظل غارقًا فى النوم ثم نظر إلى ساعته وخاطبها قائلاً:

" قربنا نوصل يا بنتي. عندما نصل "محطة مصر" اتبعينى حتى أدلك على الطريق".

أخرج من جيبه شيئًا كالكيس المطوى لونه أسود، وتناول منه ورقة صغيرة مستطيلة ومدها إليها قائلاً: "هذه بطاقتي، فيها اسمي، وعنواني، وأرقام التليفونات الخاصة بي. أنا وكيل كلية الآداب بجامعة "القاهرة" يا "نور". أشعر أنك ستنجحين فى عمل أشياء جيدة إن أكملت تعليمك. حافظى عليها. ربما فى يوم من الأيام تحتاجين إلى مساعدتى فى شيء. إذا حدث هذا لا تترددى.. اتصلى بي".

عندما توقف القطار فى المحطة انتظرها حتى خف تزاحم الركاب الذين هبطوا من العربة، وقادها خارج المحطة إلى سيارة للأجرة. سألها عن العنوان الذى ستتجه إليه، فأخرجت من صدر الجلباب كيسًا من القماش مربوطًا بدوبارة حول عنقه، وأخذت منه ورقة مطوية أعطتها له. قرأ العنوان مرة ثم مرة ثانية كأنه يتأكد مما قرأه، ثم سألها:

"أنت متأكدة من العنوان ده يا بنتي"؟

قالت:

"نعم. جدتى أعطته لسيدنا الشيخ لينقله على هذه الورقة".

التفت إلى السائق وقرأ له العنوان، ثم سأله:

"كم أجرتك. ياسطى"؟

لم تسمع ما قاله السائق. رأته يخرج من جيبه كيسه الأسـود المطـوى تناول منه بعض الأوراق المالية وأعطاها للسائق. قالت:

"معى نقـود". وسـحبت الكـيس المربـوط حـول عنقهـا مـن صـدرها بسرعة. فابتسم وقال:

"هدية صغيرة منى لك مقابل النور الـذى رأيتـه فى عينيـك. يـالله مـع السلامة".

فتح لها باب السيارة الخلفـي، وأشـار إليهـا بالـدخول. اسـتقرت عـلى المقعد فانطلقت السـيارة قبـل أن تـرد عليـه. نظـرت وراءهـا مـن النافـذة الخلفية فلمحته من ظهره، قوامًا طويلاً، وشعرًا أشـيب، وحقيبـة تـدلت إلى جوار ساقه وهو سائر.

***

الفصل السادس

تذهب إلى المدرسة وتعود. انقطعت صلتها بالماضي، بستها "عيشة"، بحياة الدوار، بالذكريات ما عدا تلك الليلة التى لا تنساها. فقدت "أم هاشم" الأجر الذى كانت تحصل عليه كمربية ترعى البنت الصغرى للمحاسب "أمير صاروفيم". صادر "عبد الناصر" ذلك الجزء من ثروته الذى لم يتمكن من تهريبه، فقرر أن ابنته تحتاج إلى مربية تُجيد اللغة الفرنسية تمهيدًا لرحيل أسرته إلى "فرنسا" بعد أن يقوم بالترتيبات اللازمة، فساءت حالتها.

عندئذ لجأت إلى العمل كخادمة تقوم بالطبخ والتنظيف فى البيوت. لكن فى هذه الفترة بدأت تعانى من داء أصاب مفاصل يديها وساقيها، فأقعدها عن العمل. أخذت تنتقل بين عيادات الأطباء، ثم بين المستشفيات العامة واضطرت إلى سحب ما تبقى لها من المدخرات التى وضعتها فى دفتر للتوفير فتحته فى مكتب للبريد فى شارع "بور سعيد". لكن ساءت حالتها، وتراكم عليها مبلغ لم تستطع تسديده للصيدلى الدكتور "وديع" مقابل أدوية ابتاعتها منه، ووعدته بتسديد ثمنها فيما بعد. فى أحد الأيام

ذهبت إليه لتطلب منه إعطاءها علاج "أم هاشم" الأسبوعي. وجدته واقفًا فى الصيدلية منهمكًا فى رص بعض علب الأدوية على رف قرب الباب. عندما دخلت شيء ما فى النظرة الجانبية التى ألقاها ناحيتها من تحت عويناته جعلها تتردد. كانت قد هبطت من شقتهما فى الدور الثامن وهى تشعر بالهزال، بأن ساقيها تنثنيان تحتها مع كل درج تهبط عليه، بشيء كالغشاوة أمام عينيها. كوسيلة للإفطار قسمت الرغيف الجاف الملفوف فى منشفة، وابتلعته مع كوب من الشاى صنعته بإضافة الماء المغلى إلى "تفل" للشاى.

حيته بصوت واهن قائلة:

"صباح الخير يا دكتور "وديع".

لم يرد عليها. ظل يرتب الأدوية على الرف، ثم التفت إليها وقال:

"عايزة إيه يا "نور"؟

تلعثمت وهى تقول:

"جيت آخد أدوية ماما "هاشم".

قال:

"مفيش أدوية يا "نور" لحد ما تدفعوا اللى عليكو".

بهتت، فظلت صامتة. لكن وجه "أم هاشم" وهى تعود دون الأدوية قفز أمامها بتجاعيده العميقة حفرها فيه المرض، بعينيها البنيتى اللون انطفأ فيهما البريق الضاحك الذى كان يميزها، فأصرت:

"هاندفعلك يا دكتور "وديع"، بس اصبر علينا شوية. إدينى الدوا. ماما "هاشم" تعبانة أوى".

أطلت عليها ملامحه الممسوحة كستها مسحة من الأسي.

"بصى يا بنتى انتو بقى عليكو أكثر من تلتميت جنيه. وماما "هاشم" عندها حاجة اسمها "روماتويد"، ودى ما حدش عارف سببها إيه بالظبط، والعلاج هدفه بس تخفيف أعراضها، وهى وحظها. يا تزيد يا تقف عند حد. وأنا شايف إنها بتزحف عندها. وكمان يا بنتى العلاج ده بيأثر على المعدة وانتوا باين عليكو...".

لم يكمل جملته. ظل يحملق فيها تقف أمامه وتنظر إليه من عينين اتسعتا ولمعتا فى وجهها النحيل بشكل مخيف، لمحتهما فى المرآة وهى تمشط شعرها فى الصباح. أحست بالحيرة، بغلالة سوداء تلف حولها، وتمنعها من إبداء رد فعل، باليأس الكامل الذى لا مخرج منه. سقطت من عينيها دمعة، فأحست بالخزى. نطرتها بعيدًا بحركة عصبية من يدها كأنها تتحداه، ثم استدارت بسرعة وخرجت من الباب. سارت على الرصيف كالعمياء لا ترى شيئًا. تتفادى الناس السائرين، أو الجالسين أمام الورش، والمخازن والحوانيت بحركة غريزية. فكرت فى أن تتجه كما أصبحت تفعل كل يوم إلى الفرن البلدى لتأخذ منه بعض الأرغفة التى لا تصلح للبيع، لكنها عدلت عن هذه الفكرة. شعرت أنها لم تعد قادرة على شيء، أنها تريد أن ترقد على الرصيف وتصرخ بأعلى صوت، أن تلقى بنفسها تحت إحدى السيارات لينتهى كل شيء. سمعت صوتًا يناديها "نور".. "نور". تجاهلته فعلا الصوت بإصرار. كان صوتًا رفيعًا اخترق أذنيها كالصفير الحاد، كالسكين المؤلم، والمريح لأنه انتزعها من الإحساس باعتصار قلبها تحت الضلوع، باليأس الكامل، بالانتهاء.

التفتت. على مقربة منها كان يقف رجل أبيض نحيل. فوق شفته العليا شيء كالخط الأسود. أخذ ينظر إليها بمزيج من التردد، والفضول قبل أن تجرى عيناه كالفأرين بسرعة على جسمها، لتعودا إلى ملامحها النحيلة. قال دون مقدمات.

"أنا أعرفك. اسمك "نور".. مش كده؟ وانتِ صحيح بنت زى النور. وأنا اسمى "إسماعيل"، بينادونى "سوسو". أنا صاحب محل الكوافير ده. وأنت كل يوم كنتى بتمرى أدامه، لكن بقالك مدة مختفية. تعالى اشربى حاجة. باين عليكى تعبانة. ممكن أعملك قرفة سخنة، واللا كاكاو باللبن. تحبى تاخدى إيه"؟

نظرت إليه كأنها لم تفهم ما قاله. قالت:

"عايزة كاكاو باللبن".

أمسك بيدها وجذبها برفق فخطت معه داخل المحل. كانت تجلس فيه امرأة منهمكة فى تمرير مبرد على أظافرها المطلية بصبغة حمراء، فجلست فوق مقعد على مسافة منها.

فيما بعد عندما سألها "عزيز المغربي" وهما جالسان على السلالم بعد أن أحضر لهما شايًا من البوفيه:

"يا "نور" ما الذى جعلك تسيرين فى هذا الطريق.."؟

سلطت عليه عينين أصبحتا مثل بئرين يغوصان فى أعماق الظلام، وقالت:

"كوب من الكاكاو باللبن".

***

الفصل السابع

كانت قد حصلت على الثانوية العامة، وتركت مدرسة "السنيَّة" فتذكرت الرجل الذى التقت به فى القطار يوم أن رحلت عن الدوار متجهة إلى "القاهرة". قررت أن تزوره فى الكلية لتستشيره فى خطواتها القادمة، فلم يكن فى ذهنها أحد غيره يمكن أن تلجأ إليه. الرجال الذين تختلط بهم يجيئون إلى الشقة ليُطفئوا شبقهم ثم ينصرفوا بسرعة دون أن يتحدثوا معها سوى أحيانًا عن الوضع الذى يفضلونه أثناء ممارستهم للجنس، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

بحثت عن البطاقة التى كان قد أعطاها لها فلم تجدها فى أدراج المكتب الصغير الذى صنعه لها النجار الأسطى "عطية" فى ورشته أسفل العمارة، ولا فى أى مكان آخر. لاحظت "أم هاشم" أنها أخذت تقلب فى الصندوق الذى وضعت فيه الأشياء القليلة التى حملتها معها عندما حضرت من البلدة فسألتها:

"بتدورى على إيه يا "نور"؟

قالت:

"على الكارت اللى عطهولى الراجل اللى جابلته فى الجطر وأنا جيًا "مصر". مش أنا حكيت ليكى عنه بعد ما وصلت"؟

"أيوه يا بنتي. دا فات على الجصة دى أكتر من سبع سنين. لكن خلينى أدور، يمكن حطيته فى الكيس اللى أنا شايله فيه أوراج الشجة كلتها".

عادت بعد قليل على وجهها الأسمر كان يشع بياض أسنانها وهى تلوح بالبطاقة التى أمسكت بها بين أصابعها القصيرة القوية. فى اليوم التالى توجهت إلى كلية الآداب. لم يخطر على بالها أن تتصل بالدكتور "مصطفى السماع" تليفونيًّا ربما من باب الخجل، أو لأنها كانت تضيق بأى تأجيل فى تنفيذ ما تكون قد قررته. هبطت على السلالم مندفعة، وكادت تجرى وهى سائرة فى الشارع تطير جداول شعرها الطويل كالعُرف من ورائها. وصلت إلى الكلية وهى تلهث. سألت عنه السكرتيرة الخاصة بمكتب الوكيل، امرأة بيضاء بدينة فحصتها بنظرة متأنية قبل أن تخبرها أن الدكتور "مصطفى السماع" لم يعد وكيلاً للكلية بعد أن أُحيل إلى المعاش، وأنه بالإضافة إلى ذلك توقف عن إعطاء محاضراته عن الأدب المقارن.

تقول "أم هاشم": يا "نور" الحياة دى صدف... حظوظ". فتتساءل عندما تفكر فيما جرى لها: ترى هل هذا صحيح؟ هل حياتها كانت وليدة الصدف، أم أن المرأة التى أصبحتها الصبية "نور" كانت تُحدد عند كل منحنى فى أى اتجاه تُريد أن تسير؟ كانت تشعر بالراحة إزاء هذا الاحتمال. يتملكها الإحساس بأنها مالكة لقرارها، أنها حرة رغم أن الظروف، والصدف لعبت دورها. فهى التى كانت تختار كيف تتعامل معها، كيف تستفيد من الصدف لتحقق أهدافها، كأن فى أعماقها حسًّا يقودها. فيوم أن تركت قدميها تخطوان داخل محل "الكوافير" رغم ما سمعته أذناها عنه وهى

تتنقل فى الحي، كانت قد اتخذت قرارها دون أن تعى تمامًا أنها بذلك تفتح لنفسها السبيل للخروج من الحصار.

فى الوقت نفسه عندما خطت داخل محل الكوافير كان صوت فى أعماقها يُقلق ضميرها، ويهمس لها أن دخولها من الباب فيه شيء ممجوج، بل فيه خطر عليها. مع ذلك لم تقاوم اليد التى جذبتها إليه. لم يكن الجوع وحده هو سبب استسلامها، فالصوت كان يقول لها إنها خطوة سترفعها من القاع الذى ظلت تحيا فيه منذ أن ولدت بنتا فى الدوار الكبير.

فى ذلك اليوم عادت من مشوارها الفاشل إلى كلية الآداب تجر قدميها. فرحت بحصولها على الثانوية العامة وبالدرجات المتميزة التى نالتها، لكن سرعان ما أحست بالضياع. فى هذا العالم المزدحم بالناس كانت تشعر أنها وحيدة، تتحكم فيها قوى لا تراها، قوى كالأشباح، كالكوابيس التى تُعيدها إلى أيام فى الدوار، إلى ذراعين تلتفان حول جسمها، إلى رجل لا ترى وجهه يدس شيئًا بين ساقيها فيمزقها.

الآن أصبحت النقود تجرى بين يديها، تبتاع بها ما تريد ثم تعود بما ابتاعته إلى البيت. فى بعض اللحظات لا تقرأ فى عينى "أم هاشم" الضحكة القديمة. أصبح فيهما أحيانًا شيء كالجدار، كالصد أو الرفض البارد. فى هذه اللحظات يبدو لها أنها ستفقد الإنسانة الوحيدة التى تحبها، والتى يمكن أن تبوح لها بألمها فى الحياة. لكن فى اللحظة التالية ينقشع الجدار، وتربت "أم هاشم" بيدها على كتفها النحيلة قبل أن تحمل جزءًا مما ابتاعته إلى المطبخ، وهى تقول بصوتها المبحوح الأليف: "أعمل شوربة لحمة، واللا أعمل كباب حلة"؟ فتعود الحياة إلى سريانها البسيط.

لم تكن راغبة فى العودة إلى البيت بسرعة، فقررت أن تجتاز المسافة من الجيزة إلى "باب الخلق" سائرة على قدميها. عندما وصلت إلى "ميدان عابدين" أحست بالهزال. لم تكن قد تناولت سوى كوبٍ من الشاى قبل أن

تهبط إلى الشارع. توقفت عند محل للعصير كانت تعرج عليه أحيانًا بعد خروجها من المدرسة. حياها الشاب الجالس خلف "الكيس" قائلاً:

"أهلاً.. إزيك يا "نور". بقالك مدة ما بتعديش علينا".

قالت:

" أصلى نجحت فى الثانوية وسبت المدرسة".

"ألف مبروك يا ستي. عقبال الليسانس. تشربي إيه؟ المشروب النهارده علينا".

قالت:

"شوب برتآن صغير".

"لا .. شوب كبير"، ثم ملتفتًا إلى العامل المنتصب خلف "البنك" يتابع ما يدور بينهما وهو يمسح على الرخام بمنشفة:"شوب عصير برتآن كبير للست "نور" يا سعيد من البرتآن اللى جالنا النهاردة". ألقى إليها بنظرة سريعة ثم أضاف: "لكن إنت مش زى كل يوم يا "نور". حد زعلك"؟

حملقت فى وجهه العريض المحمر قليلاً يرتفع فوق عنق عضلاته بارزة دون أن ترد على سؤاله. كانت تعرف أنه يمارس رياضة حمل الأثقال فبادرته متسائلة بدورها حتى تغير مجرى الحديث:

"أنت لسه بتشيل حديد يا "حمادة"؟

قال:

"لا... أبدًا، بطلت.. أصلى خطبت بنت من الحى لمضة. قالتلى إنها ما بتحبش العضلات المنفوخة، وإنها مش بتتجوز حصان". ضحك قبل أن يسترسل: "وأنا باحبها ومش عايز أزعلها. قلتلها العضلات دى تنفع عشان تحميك، لكن ردت إنها تعرف تحمى نفسها، فسكت. أهه أنا ونصيبى بقه".

وقفت على الرصيف تشرب من كوب العصير فى الشمس. أخذت تفكر فيما قاله فأحست أن شيئًا فى مزاجها تغير، أن الحزن راح. خطر لها أن ما حدث فى الدوار مهد لها الطريق الذى سارت فيه بعدما وافقت على زيارة "سامية" أخت الكوافير "سوسو". شعرت بعصير البرتقال ينفذ إلى جسمها وينتشر فيه حاملاً معه أشعات الشمس الهابطة عليها. قالت لها "سامية" إنها حتى لا تخاطر بمستقبلها وهى ما زالت صغيرة، الأفضل أن تقوم هى بتحويل "الزبائن" إليها بعدد محدود تتولى اختيارهم. قالت:

"أغربلهملك أنا عشان ما يبقوش بتوع مشاكل، ويكونوا زباين سؤع، وكده أحميك. وفى البيت عندك "أم هاشم" تسترك برضه، وتبعد عنك العينين. وأنا مش عايزة غير إن إحنا نتقاسم بالنص فى اللى إنتى هتاخديه منهم. أظن دى الأصول واللا إيه يا بنتي"؟ تنظر إليها بعينين فيهما شيء كالتهديد قبل أن تضيف:"بس إوعى تحاولى إنك تغشينى لأنه مفيش حاجة حتستخبى عليّ، فاهماني. أصل بنات الأيام دى ما عندهمش زمة".

قبل أن تصعد وجدت البواب جالسًا على مقعد متهالك من القش، وقد رفع إحدى قدميه وأخذ يعبث بأصابعها كأنه يشمس الفجوات البيضاء التى تفصل السمار الغالب عليها. عندما لمحها قام فى تثاقل ليهمس فى أذنها:

"الزوار الليلة حيبقوا كام يا ست "نور".

قالت:

"أربعة. وما تطلعش واحد قبل ما ينزل اللى جيه قبله زى ما عملت من يومين، وإلا حدور على حتة تانية يزورونى فيها".

حملق فى وجهها قبل أن يقول:

"حاضر يا ست "نور". وصعد معها السلم ليفتح لها باب المصعد.

عندما دخلت إلى البيت بحثت عن وصف لعينيها وهما تحملقان فيها، فقالت: "يا ماما زى راس المسمار"، فبدا على "أم هاشم" الانزعاج الشديد.

تناولتا طعام الغداء جالستين وحدهما فى الصالة أمام منضدة من "الملامين" تنقلانها من غرفة النوم الداخلية. أكلت وقامت بسرعة لتنام قبل استقبال الذين سيصعدون فى الليل. أيقظتها "أم هاشم" بعد أن انتهت من صلاة المغرب. اغتسلت، ورتبت السرير ثم ارتدت قميصًا للنوم من القطن الخفيف بدلاً من القميص الذى كانت ترتديه، وبعد تفكير فتحت درجًا فى الدولاب وأخرجت بعض الملابس الداخلية. نحت اللون الأحمر والأسود جانبًا بحركة متوترة، كارهة، واختارت من بينها "كالسونا" أبيض فيه وردة صغيرة. أضاءت المصباح المطل من أعلى السرير، وفتحت المذياع فجاءها صوت رجل يقول: "أشار الرئيس فى بيانه إلى ضرورة الاهتمام بمحدودى الدخل.."؛ أدارت قرص البحث عن المحطات. تردد فى الحجرة صوت "نجاح سلام" وهى تغنى "كل دقة فى قلبى بتسلم عليك يا واحشني" فأخذت تنصت، لكن بعد قليل جاءتها دقات جرس، ثم أصوات تتبادل الكلام، تلاها نقر على بابها. أطفأت المذياع واستقامت فى السرير قبل أن تقول: "ادخل".

انفتح الباب ببطء ودخل شاب بدا عليه التردد وهو يخطو داخل الحجرة. كان قصير القامة تنحنى كتفاه قليلاً كأنهما تميلان تحت ثقل رأسه الكبير. كان يرتدى عوينات تطل من خلفها عيناه بنظرة فاحصة دار بها حول الحجرة قبل أن تستقر عليها. قالت:

"اقفل الباب وراك". فأغلقه بحرص، ووقف ينتظر، قالت:

"إنت مستنى إيه؟ حاتدنك واقف كده؟ تعالى جنبي".

لم يتحرك. تلفت حوله كأنه يبحث عن مغيث، أو عن وسيلة للعودة من حيث جاء.

قالت:

"تعالى ما تخافش. أنا صغيرة زيك لكن حوريك تعمل إيه".

قامت وأمسكت بيده لتجذبه إلى السرير فطاوعها وجلس عليه. كان يرتدى سترة مغلقة بالأزرار حتى العنق مثل تلك التى يرتدونها فى الصين، أخذت تفكها الواحدة تلو الأخرى، ثم ساعدته فى خلع القميص والبنطال شدت عليه من أسفل إلى أن هبط حول ساقيه، فانحنى ليزيل الحذاء، والجورب من على قدميه وليسقطهما مع البنطال على البساط.

كانت قد أضاءت مدفأة كهربائية وأغلقت النافذة والستارة التى تتدلى عليها للحيلولة دون تسلل برد الشتاء إلى الحجرة. مع ذلك لاحظت أنه كان يرتعش، فألقت بملابسه على مقعد قريب، وسحبت عليه غطاء السرير، ثم خلعت عنه ملابسه الداخليه، وأخذت تمر على جسمه العارى بيدها متفادية الجزء الأسفل من بطنه إلى أن انتصب فاحتضنته ولفت من حوله ساقيها.

بعد أن مارس معها الجنس قام بسرعة وارتدى ملابسه. ولأول مرة منذ أن دخل إلى الحجرة خرج عن صمته وقال:

"أشكرك".

قالت:

"بتشكرنى على إيه"؟!

قال:

"أول مرة أنجح مع واحدة".

رفعت كتفيها بحركة بطيئة. سألته:

"اسمك إيه"؟

"فؤاد" .. "فؤاد السماع".

قطبت جبينها وهى تنظر إليه:

"تعرف واحد اسمه "مصطفى السيد السماع"؟

قال:

"طبعًا .. ده يبقى جدى. إنتِ بتسألى ليه؟ هو جالك هنا"؟!

تردد فى ذهنها كلام "أم هاشم" عن الصدفة. ابتسمت:

"لا.. عمره ما جالي.. بس أنا بادور عليه. عايزة أستشيره فى حاجة".

قال فى دهشة:

"تستشيريه! تستشيريه فى إيه؟! ده هو مالوش دعوة بأى حاجة زى دى. حياته هى الطلبة، والتدريس".

"ما هو أنا عايزاه عشان كده".

"عايزاه عشان كده؟ وإنتِ...".

"أيوه. عايزاه عشان أدخل الجامعة. هو إنتِ فاهم إن اللى زيى مش عايزين يعملوا حاجة تانية تطلعهم من اللى همه فيه"؟!

نطقت الجملة الأخيرة فى توتر فصعدت حمرة الخجل إلى وجهه. ظل ينظر إليها فى صمت ثم أخرج من جيبه أوراقًا نقدية وضعها على "الكومودينو". لم تلتفت إليها. سألته:

"تدينى عنوانه"؟

"هو بيدرس فى معهد المسرح".

هتفت:

"معهد المسرح"؟!

"أيوه .. بس إذا روحتيله أوعى تقوليله إن أنا كنت عندك".

قالت:

"إطمن، وشكرًا يا "فؤاد". باين ربنا هو اللى بعتك لي. مع السلامة".

خرج من الباب فأغلقته وراءه. ظلت واقفة دون حركة لحظة طويلة، ثم رفعت ذراعيها أعلى رأسها وأخذت تميل بجسمها فى حركة راقصة وهى تنظر فى المرآة.

***

الفصل الثامن

القاعة مزدحمة. تسللت إليها شاقة طريقها بحركة متمايلة بين الأجساد المتجمعة قرب الباب وهى تبحث بعينيها دون جدوى عن مكان بين الجالسين. لم تشعر بالضيق. تُفضل الجلوس فى الصف الأخير تطل منه على الطلبة والطالبات المتراصين صفوفًا على الدكك، على الدكتور "مصطفى السماع" وهو يروح ويجيء فوق المنصة الخشبية. لا يكف عن التساؤل، والحوار معهم كأنه يبحث عن حقيقة تراوغه، وتفلت على الدوام.

مع الأساتذة الآخرين كانت تنشغل بأشياء أخرى. تُحاول أن تستشف الشخصيات المختفية داخل الرؤوس يلفها شعر قصير أو طويل، أسود أو أشقر أو كستنائى اللون، أو أكرت مجعد مثل صوف الخرفان. تستقر عيناها على الواحد منها لمدة تقصر أو تطول حسب الإيحاءات والخواطر التى يُثيرها فيها شكل القفا، أو الطريقة التى يرتفع بها الرأس أو ينحني، ربما لينتقل ذهنها إلى "زبون" استقبلته فى أحد الأيام. أحيانًا تستدير وتتأمل ما يدور فى الخارج خلال النوافذ الخلفية لتتابع حركة الأشجار اكتست بالزهور الحمراء أو الصفراء أو البنفسجية اللون.

بعد أن بدأت الدراسة بما يقرب من شهر لاحظت أن هناك طالبًا دأب على الجلوس مثلها في الصف الأخير، وأنه في الأيام التي يغيب فيها عدد كبير من الطلبة لا يوجد في هذا الصف سواهما. مع ذلك لم يحدث أن دار بينهما حديث، ما عدا أنه في أحد الأيام أغلق الكراسة التي كان يُسجل فيها، وسألها بلهجة مهذبة إن كانت تستطيع أن تُعيره كشكولها الخاص بأدب المسرح المقارن بعد أن أُصيب بوعكة أرغمته على الغياب أيامًا. تجاهلته تمامًا كأنها لم تسمع ما قاله، فلاحظت لمعة الغضب في عينيه العسليتين ظهرت لحظة ثم اختفت. بدت لها هذه اللمعة مثيرة، فعادت إليها ساعة أن أوت إلى الفراش. أحست إحساسًا غامضًا أنها لن تنساها، أنها من الأشياء التي ستبقى معها. تذكرته وهو يميل ناحيتها كأنه سيعلق بشيء ثم وهو ينظر أمامه منسحبًا إلى جلسته الصامتة.

منذ تلك اللحظة لم يوجه إليها الكلام. أحست بالضيق من تصرفها، لكن عند التحاقها بالمعهد كانت قد قررت أن تفصل تمامًا بينه وبين حياتها في شارع "محمد علي"، أن تمتنع عن إقامة أية علاقة مع الطلبة، أو الطالبات، أو مع أعضاء هيئة التدريس. أدركت أن حدوث أي تداخل بين الاثنين يمكن أن تترتب عليه مشاكل تعوقها عن التقدم نحو الهدف الذي تسعى إليه.

بعد أسبوع كانت جالسة في المكتبة تقرأ مسرحية "الزفاف الدامي" "للوركا". تردد في أذنيها صوت يُشبه الهتافات يصعد من الحوش. قامت لتطل من إحدى النوافذ فوجدته مزدحمًا بجموع الطلبة، والطالبات. ترددت الهتافات مرة أخرى غاضبة، صاخبة، لكنها لم تتبين ما كانت تقوله. عادت إلى المنضدة التي كانت جالسة عليها، والتقطت منها المسرحية. توجهت إلى شابة وجهها المستدير غطاه النمش تجلس خلف مكتب صغير في مقدمة الصالة. سلمتها إليها، ثم لملمت أوراقها وهبطت على السلم بسرعة.

توقفت فى فتحة الباب المفضى إلى الحوش ودارت بنظراتها حوله باحثة عن مكان تستطيع أن تتابع منه ما يجرى فيه. تنبهت إلى طالب كان يقف بمفرده أعلى السلم فى شرفة تقود إلى مدخل الإدارة. كان يخطب فى المجتمعين. لفت نظرها الصمت الذى ساد، أن المجتمعين كانوا يُنصتون إليه دون أن يُقاطعه أحد، أو يُعلق بشيء. بين الحين والحين كان يرفع إحدى يديه، ثم يُنزلها بحركة تُوحى بالحسم. لم تستطع أن تلتقط ما كان يقوله فقد استدار بجسمه ليُواجه الكتلة الرئيسية من الطلبة تجمعوا فى الناحية الأخرى من الحوش. أخذت تدفع بنفسها تدريجيًّا بين الصفوف لتقترب من المكان الذى يقف فيه إلى أن وجدت مساحة صغيرة خالية قرب السور تستطيع أن تسمع فيها كلماته بوضوح.

سمعته يقول:

"إنتو مش شايفين اللى بيحصل لنا. افرضوا إن إحنا اتخرجنا، هنروح فين، وهنشتغل إيه. هو بقى فيه مسرح، و لا سينما، ولا فن؟ هو بقى فيه حد بيتعلم، ولا حد بيعلم؟ كله بقى تجارة، والكبير بياكل الصغير. البلد معدش فيها مكان لينا، بيبيعوها حتة حتة للمعاهم فلوس، للأغنيا الأجانب، والمصريين. بقت مليانة شباب زينا بيتسكعوا فى الحوارى والشوارع، أو بيعملوا حاجات وسخة عشان يعيشوا. وهنا فى المعهد، وفى الأكاديمية حد بيعلمنا حاجة. كلهم بيجروا يلموا قرشين من السوق. كل حاجة بقت للبيع، المذكرات، والدروس، والامتحانات. حنفضل ساكتين لحد إمته"؟

ارتفع صوت على مقربة من الشرفة التى كان يقف عليها صارخًا فجأة:

"انزل يا ولد.. انزل.. مش عايزين فوضى، وشغب.. ما حدش يعطل الدراسة.. لو ما سمعتش الكلام حتعرف شغلك".

التفتت إلى مصدر الصوت فلمحت أحد ضباط الحرس يقف أسفل السلم ومعه ثلاثة رجال صعدوا على الدرج ثم توقفوا كأنهم ينتظرون أوامره. ظل الشاب ينظر إليهم من أعلى دون أن يتحرك، فأشار إليهم الضابط، لكن قبل أن يواصلوا الصعود علا صوت يهتف بعصبية "الله أكبر.. الله أكبر.. ده شيوعي، كافر.. أدبوه". فاستدار باحثًا عن مصدر التهديد الجديد. لمحت طالبًا طويل القامة، قوى الكتفين يرتدى نظارة سوداء يرفع شيئًا لامعًا في يده، ويُلوح به، وفجأة هجم عدد من الواقفين حوله على السلم لكن قبل أن يصلوا إلى الشاب قفز من فوق حاجز الشرفة، وانطلق في الطريق الذى فتحه له الطلبة ليختفى بين المباني.

هجم ضابط الحرس ومن معه في اتجاه صاحب العوينات السود، وأخذوا يُوجهون ضربات عشوائية إليه، وإلى الواقفين بعصى قصيرة كانوا يحملونها؛ فساد الهرج، وتدافعت الجموع في اتجاه بوابة الخروج وسط صرخات الهلع. جرفها التيار وكادت تسقط. انتزعت نفسها من الهجمة المندفعة، المتلاطمة. تعلقت بقطعة من الحديد كانت تبرز من السور، وقبضت عليها بكلتا يديها. وقعت حقيبتها على الأرض فأمسكت بها بين قدميها حتى لا تضيع. أحست بالأجسام حولها تموج. بدت العيون والوجوه الملتفة حولها كالمجنونة، والصرخات مخيفة فتملكها الذعر، ولم تعد تشعر بنفسها وسط الجموع. ألصقت جسمها بالسور كأنها تريد أن تذوب فيه. شعرت "بالبلوزة" التى كانت ترتديها تتمزق وكادت تفقد الحذاء من إحدى قدميها لكنها ظلت تصارع حتى لا تنزاح من مكانها، مستعينة بيديها القابضتين على قطعة الحديد.

أفاقت على الحوش كاد يُصبح خاليًا ما عدا عددًا من الطلبة والطالبات صعدوا إلى شرفة أحد المباني، أو تخفوا داخل المراحيض، ثم أخذوا يظهرون في الحوش بالتدريج وهم يتقدمون بخطوات مترددة.

نفضت ملابسها من التراب الذى تعلق بها فلاحظت أن إحدى كتفيها أصبحت عارية. انحنت لترفع حقيبتها عن الأرض. فتحتها وأخرجت منها كيسًا تعودت أن تضع فيه نقودها المعدنية. بحثت فيه إلى أن وجدت دبوسًا كانت تحتفظ به، وأوثقت طرفى الجزء الممزق من بلوزتها لتغطى به كتفها. سارت نحو البوابة شاعرة أن ساقيها أصبحتا واهنتين، ثم خرجت إلى الشارع متجهة إلى طريق الهرم.

عندما اقتربت من البيت كانت الشمس قد غربت، وكان الغسق قد هبط بلونه الرمادى على المدينة، زادت من كآبته مصابيح الشارع بضوئها الأصفر المريض. أحست وهى سائرة بأن قلبها ثقيل. تقول لها "أم هاشم": "يا بنتي.. ملكيش دعوة بالحاجات اللى بيعملوها الطلبة. دول ما بيهمهومش حاجة.. مش مسئولين، لا عن أسرة، ولا عن ولاد، ولا حتى عن نفسهم.. أهاليهم همه اللى بيصرفوا عليهم، لكن إنتى بتصرفى على نفسك، وعلى تعليمك.. وخدى بالك، "الكار" اللى إحنا فيه ده العينين مفتحة عليه. لو مسكوكى فى مظاهرة واللا فى إضراب حيشمشموا وراكى عشان يعرفوا كل اللى بتعمليه. دانا لما كنت باشتغل عند الخواجة "صاروفيم" شكوا إنه بيهرب فلوسه بره. راحوا مهاجمين البيت، وفتشوه حتة حتة. وأنا اللى ما كانش لى دعوة بحاجة ألّبوا فى برطمانين خيار كنت مخللاهم لنفسي، وجطعوا مرتبة السرير اللانا كنت بأنام عليه عشان يدوروا على فلوس، ولا ألماظ يكون متخبى فيها".

ترى الشظايا السوداء اللون التى تسبح فى عينيها عندما تغضب. لم تستخف بتحذيراتها. وضعت بينها وبين الطلبة والطالبات فى المعهد حاجزا لا تتخطاه، فهى لا تريد أن يقف أى شيء فى طريقها. تريد أن تكرس حياتها للتمثيل، أن تُجيده، أن تسافر إلى الخارج. محاضرات الدكتور "مصطفى السماع" أوحت إليها بهذه الفكرة، وعندما حدثته عن ذلك ألقى ناحيتها

بابتسامة مشجعة وقال: "ولم لا يا بنتي؟ ستسافرين. رؤية جوانب من الفن المسرحى فى الخارج مهم، لكن لا تنسى أن الفن الأصيل ينبت فى الأرض التى نعيش فيها. اقرئي، وتأملي، وسجلى انطباعاتك، وواظبى على مشاهدة بعض العروض، واحضرى "بروفاتها" إن أمكن".

لماذا هذا الإحساس بالضيق الذى يتزايد كلما توغلت فى الحى الذى تسكن فيه؟ ألأنه يُعيدها إلى الجزء الخفى من حياتها، إلى الرجال الذين ستستقبلهم الليلة؟ أنها تحيا فى عالمين تنتقل بينهما وهى كارهة. تحسد زملاءها فى المعهد. تراهم يضحكون كأن نفوسهم صافية، ولا يحملون الهم الذى يختبئ فى أعماقها. تعودت على حياتها، ولم تعد تفكر فى وضعها كثيراً.. ربما فى البداية. أهى كآبة المدينة عند آخر النهار تجعلها تحن إلى المساحات الواسعة، إلى ألفة الجاموسة ترمقها من طرف عينها عندما تحلبها، إلى لون البرسيم، وصدر ستها "عيشة"؟ لماذا تعود إليها هذه الأشياء بعد أن كادت تنساها؟ أحداث اليوم كانت مخيفة. تشعر بالإرهاق، بأنها أصبحت مفرغة من الداخل. أم هناك شيء غير كل هذا؟ تحس إحساسًا طاغيًا بالوحدة، أنها وحيدة وسط الآلاف.. أن الطلبة والطالبات الذين اندفعوا من البوابة يجمعهم شيء واحد. أم أنها تتوهم ما لا يُوجد فى الواقع؟

ليست هذه أول مرة يتملكها فيها هذا الإحساس. فى المرات السابقة كان عابراً، وسرعان ما كانت تنساه وسط انشغالها بحياتها. الليلة لا ترغب فى استقبال الزبائن. الليلة تشعر أنها لن تفرح بالنقود التى سيتركونها قبل أن يغلقوا باب حجرتها وراءهم. تعودت فى آخر الأسبوع أن تُحاسب "سامية" ثم تذهب إلى فرع "بنك مصر" القريب من العمارة لتضعها فى حسابها. تشعر بالسعادة أمام الأرقام تتزايد فتذهب إلى الكوافير "سوسو" ليُصفف لها شعرها. ترتاح إلى أصابعه تدلك رأسها وهى جالسة فى المقعد العالى كأنه يعتصر منه ما تراكم فيه من متاعب. الآن يبدو الذين سيأتون

إليها أكثر قبحًا من أى وقت مضى. اليوم زادت كراهيتها لرائحة عرقهم، لملابسهم الداخلية، وصوت لهاثهم، للكروش المشعرة تحتك ببطنها، وللأيدى تعبث بأجزاء من جسمها وكأنها لسبب ما لن تكون قادرة على الانفصال عما يحدث معها كل ليلة.

تراءى لها واقفًا أعلى السلم فتلاشت الخيالات التى سيطرت عليها كلما اقتربت من العمارة أحست أنها كالوحش يفتح فاه ليبتلعها. عاد إليها صوته الواضح الهادئ يفرض الصمت على الواقفين فى الحوش أمامه. رأت عينيه يوم أن تحدث إليها. لم تلحظ الشيب الذى زحف حول أذنيه، ولا أصابعه الطويلة، ولا الشعر الغزير تسقط منه خصلة أعلى حاجبه الأيسر. لم تر سوى عينيه كأنها غرقت فيهما قبل أن تنتزع نفسها منهما لترفض إعطاءه الكشكول الذى طلبه منها. إنه مثلها يجلس وحده فى الصف الأخير، ويسير فى الحوش وحده عندما ينصرفون من المحاضرة، كأنه يريد أن يختلى بنفسه. لكن عندما رأته أعلى السلم كان قد أصبح جزءًا منهم، من جموع الطلبة والطالبات، من التحرك الذى قاموا به. لا.. كان متفردًا. يقف معهم لكن على مسافة منهم. ترى هل يشعر مثلها بالوحدة؟ لماذا صدته؟ لماذا رفضت أن تلبى ما طلبه منها؟ كان مهذبًا، وكان فى عينيه دفء. عندما لاحظت الشيب فى شعره أحبته، يُضفى عليه نضوجًا تفتقده فى الآخرين. عندما تنظر إليهم، أو تسمع كلامهم يبدون لها تافهين. حياتها علمتها الكثير. إنه ليس مثل الرجال الذين عرفتهم، ولا مثل الطلبة فى المعهد. إنها لن تصده إذا تحدث إليها مرة أخرى.. نعم لن تصده.

***

الفصل التاسع

فتحت باب غرفتها وخرجت إلى الصالة. كانت "أم هاشم" جالسة كعادتها على الكنبة وأمامها منضدة صغيرة وضعت عليها صينية فيها رمان انشغلت بنزع قشره ووضع حباته فى "سلطانية" من الزجاج الوردى اللون. رفعت رأسها وفحصتها بنظرة فيها إعجاب قبل أن تقول:

"الهدمة دى صحيح حلوة عليكي. هى دى اللى إنت اتسوجتيها من "الموسكي"؟

"لا يا ماما من سوج غزة".

"حجك تاخدينى معاك مرة. أنا محتاجة هدمتين جداد ألبسهم، والـلا أجيب الجماش، وأفصلهم على إيدى أحسن؟ كده حيكونوا أرخص.. هو إنت لابسة ورايحة فين"؟

"رايحة المسرح يا ماما".

"المرسح؟! واللى حيجولك الليلة أجلهم إيه"؟

"ما حدش حييجي. أنا جلت "لسامية" ما تأخدليش مواعيد النهارده عشان أنا تعبانة".

عادت "أم هاشم" تفصص الرمان فى صمت. تنهدت ثم قالت:

"والله يا "نور" أنا نفسى تنجطع رجل الرجالة دول عن البيت ده واصل. إنتى خسارة فيهم، وفى الحاجات الوحشة دى. بنت شاطرة، وحلوة زيك. الله يجحمها مطرح ما تروح "سامية" دى. أنا كل ما أشوفهم داخلين عليك جلبى بيجف. إنتى تستحجى أحسن من كده يا نور عيني".

"ونعيش منين يا ماما. وأكمل تعليمى منين؟ حيحصل، لكن بعد ما اتخرج واشتغل. واحنا جدرنا نوفر شويّة جروش حينفعونا. يمكن جريب أأجر شجة صغيرة وأريحك مني".

"مش جصدى يا حبيبتي. دا إنتى منورة البيت، ومعمراه بخيرك. لكن إنتى لازم تشوفى مصلحتك جبل أى حاجة تانية. أنا أجدر أدبر نفسي".

" بعد كل ما عملتيه عشانى معجول أتخلى عنك يا ماما"؟!

صمتت لحظة كأنها سرحت فيما قالته.

"فكرتينى يا بنتي. ابن عمى "محمود" مسافر البلد جريب. مش عايزة تبعتى معاه حاجة لستك "عيشة"؟ إنتى ما سألتيش عنها من يوم ما جيتى "مصر". ده برضه مش أصول، ومش أول مرة أجولك كده".

ظلت جامدة لا ترد. حملقت "أم هاشم" فى وجهها قبل أن تقول:

"معلهش يا "نور".. المسامح كريم. وأنا عارفة إن جرحك حياخد وجت عشان يخف. وكمان إحنا برضة ما نعرفش الظروف كلتها كانت إيه. ستك زمانها كبرت جوى، وربنا وحده يعرف حالتها. الناس لما بتكبر ما حدش بيسأل عنهم، حتى ولادهم".

"طيب يا ماما. أصل إنتى جلبك طيب. عشان كدا باحبك". لفت ذراعيها حول كتفيها، وقبلتها على رأسها. "بكره حفكر. دلوكيتى لازم أنزل بسرعة لاحسن كده حتأخر. دانا حامشيها من هنا للمسرح الجومى فى العتبة".

عندما خرجت إلى الشارع كان جو المدينة صافيًا، تتلألأ فيه الأضواء بعد يوم هبت فيه رياح باردة قوية. أحست بالانتعاش، بمزيج من الفرحة، والتوقع وهى تسرع الخطوة. لم تتعود الخروج فى الليل فبدت لها الأشياء مختلفة. بالأمس مرت على المسرح فى طريق عودتها إلى البيت، وحجزت لنفسها مكانًا فى مقدمة الصالة دفعت فى مقابله خمسة وعشرين جنيهًا، فهى لا تريد أن يفوتها شيء. فتحت حقيبتها وتحسست التذكرة لتطمئن عليها، ثم واصلت السير. أول مرة ستشاهد فيها مسرحية. استهواها عنوانها "رقصة الموت الجميل". لم تحاول أن تقرأ عنها شيئًا. قال لها الدكتور "السماع": "الأفضل أن تكوِّنى رأيك بنفسك. بعد ذلك إن أردت يُمكنك أن تقرئى عنها. من المهم أن تنمى ملكاتك الخاصة".

اجتازت البوابة الخارجية، والحوش الطويل إلى مبنى المسرح. قبل أن تدخل من الباب إلى البهو لم يزدحم بعد بالرواد تناولت كتيب البرنامج من يد امتدت إليها. دارت بنظراتها حوله باحثة عن مدخل الصالة وجدته ناحية اليمين، فاتجهت إليه. قادها أحد العاملين إلى مقعدها وبعد أن استقرت فيه أخذت تنتقل بعينيها على الجالسين، على السقف يرتفع إلى أعلى فى قبة ملونة، على الشرفات احتل المشاهدون عددًا منها وأخذوا يتحدثون فيما بينهم، أو يطلون من فوق حواجزها فى ترقب. ألقت نظرة على الكتيب الصغير الذى التقطته عند باب الدخول ثم ثبتت عينيها على الستارة المغلقة وسرحت. عاد إليها الحوار الذى دار بينها وبين "أم هاشم" فقررت أن تبعث برسالة فيها خمسة وسبعون جنيهًا إلى ستها "عيشة"، وبينما هى غارقة فى أفكارها سمعت دقات عالية فتنبهت إلى الستارة تنفتح بالتدريج لتكشف عن امرأة شابة جالسة على قطعة كبيرة من الحجر أمام منزل أصبح متهدمًا.

كانت المسرحية عن فتاة تعيش مع أسرتها فى بلد محتل. تنشأ بينها وبين مدرس شاب قصة حب. فى يوم عيد ميلاده يجتمعون فى بيت الأسرة

للاحتفال. تخرج من البيت وتتوجه إلى مخبز قريب منهم لتتسلم الكعكة التى تنضج فى الفرن، ولشراء أرغفة من الخبز الساخن. فى هذه الأثناء يسقط صاروخ على البيت فيدمره ويقضى على جميع المجتمعين تحت سقفه.

تنتقل الفتاة لتعيش مع أم المدرس، امرأة أرمل أصبحت وحدها فى بيتها. تنضم إلى المقاومة وتقوم بإلقاء قنبلة يدوية على مخفر للعساكر، وترقص بعدها أمام المخفر قبل أن يطلق عليها أحد الجنود رصاص مدفعه ويرديها قتيلة.

بعد آخر مشهد ظهر أفراد الفرقة على خشبة المسرح فرادى ثم مجتمعين، وعلا صوت التصفيق فى الصالة. ظلت ساكنة فى مكانها إلى أن تردد السلام الجمهورى فوقفت مع الواقفين، وسارت وسط زحام المنصرفين. كانت غائبة عما يدور حولها، مستغرقة فى وجه الممثلة الشابة التى قامت بدور الفتاة الفدائية، فأخذت تردد اسمها "علوية رستم" كأنها لا تريد أن تنساه. وفى هذه الأثناء بدا لها أن صوتًا يناديها فتجاهلته. تكرر الصوت بنبرة أعلى. تلفتت باحثة عن مصدره. لمحت شابًّا طويل القامة يقف خارج الطابور المتجه إلى الحوش. عرفته على الفور. ترددت لحظة ثم بدأت تدفع بنفسها وسط الناس لتقترب من مكانه. أسرع نحوها مخترقًا الزحام بصعوبة. عندما وصل على مقربة منها ظل واقفًا دون أن يقول لها شيئًا كأنه أحس بالحرج. تلاقت عيونهما ثم كأنه استدرك قال: "لنخرج من هذا الزحام. معى اثنان من الأصدقاء. هل لديك مانع من الانضمام إلينا"؟

قالت:

"لا".

أمسك بيدها وأخذ يشدها وراءه حتى يخترقا الزحام. عندما وصلا إلى ركن البهو الذى جاء منه وجدت شابين فى انتظاره. التفت إليها بابتسامة وقال:

"صديقى وزميلى فى المعهد "أحمد عبد الدايم"، مشيراً بيده إلى شاب نحيل يرتدى سترة ترك "إبزيمها" مفتوحًا كاشفًا عن قميصه الأحمر. نظرت فى وجهه ففوجئت باللمعة القوية التى تطل من عينيه الخضراوين. أزاحت نظرتها عنهما وهزت له رأسها، فالتفت إلى الشاب الثانى الذى وقف يُدخن سيجارة، وأضاف:

"وهذا هو صديقى "محسن شكرى". طالب فى كلية الطب. الآنسة "نور عسران" زميلتنا فى المعهد".

خطر فى بالها أنه بحث عن اسمها حتى اهتدى إليه فأحست بالرضى. هزت رأسها ثم قالت:

"نسيت أن تقدم نفسك، أم أنك لا تحتاج إلى تقديم"؟

احمرت وجنتاه. ألقى برأسه إلى الخلف وأطلق ضحكة طويلة رنت فى أذنيها مريحة. قال:

"آسف.. اسمى "عزيز المغربي". ثم أضاف: "أرجو ألا أكون فرضت هذا اللقاء عليك. منذ فترة وأنا أريد أن نتعارف. تتذكرين أننى طلبت منك استعارة كشكول محاضرات الدكتور "السمَّاع". كنت فى حاجة إليه فعلاً لكن فى الوقت نفسه كنت أبحث عن حجة للتحدث إليك". انطلق بالضحك مرة أخرى.

أحست بالدماء تصعد إلى وجهها. أما زالت قادرة على الإحساس بالخجل؟ خطر فى بالها أنها لم تشعر به منذ زمن. تدخل "أحمد عبد الدايم" فانصرفت عما كانت تفكر فيه.

"يا جماعة.. هل سنبقى واقفين هكذا؟ أقترح أن نبحث عن مكان نستطيع أن نجلس فيه. ما رأيكم فى جروبى عدلي؟ إنه قريب من هنا".

اعترض "محسن شكرى" قائلاً:

"لا يعجبنى هذا المكان. رواده أناس بلا قيمة. إنهم إما تجار يعقدون صفقة، أو عشاق يشربون زجاجة بيبسي. أفضل قهوة ريش".

سلط عليه "أحمد عبد الدايم" نظرة فيها ضيق.

"إنه مقهى المؤسسة الثقافية، والثرثارين. ثم هو بعيد عن هنا".

قال "محسن شكرى":

"على الأقل رواد قهوة ريش لهم مستوى".

التفت "عزيز المغربي" إليها وسألها:

"ما رأيك يا آنسة "نور".

قالت:

"لا أعرف هذا ولا ذاك. لكنى أختار "جروبى عدلي"؛ فيبدو أنه أقرب، وهذا سيسهل علىَّ العودة إلى البيت".

فى تلك الليلة عندما رقدت فى سريرها كانت سعيدة. عاشت لحظات من المتعة وهى تشاهد المسرحية. فى خيالها انطبعت ملامح "علوية رستم" القوية، المعبرة، وفى أذنيها كانت تتردد ضحكة "عزيز المغربي" فتبتسم. تشعر بالحاجة إلى صديق. لكن يجب أن تكون حريصة. ترى لماذا اختارت "جروبى عدلي" وهى لا تعرف عن المكانين شيئًا؟ ليس لأنه أقرب إلى بيتها. عادت إليها النظرة التى لمحتها فى عينى "محسن شكرى". عرض عليها "عزيز المغربى" أن يسير معها حتى بيتها لكنها رفضت بإصرار رغم الرغبة التى استولت عليها فى أن ينصرفا سويًّا ليتحدثا معًا أثناء الطريق. إنها لا تعرفه، ثم حتى إن كانت تعرفه فيجب أن يظل الجانب الآخر من حياتها بعيدًا عن جميع من هم فى المعهد.

***

الفصل العاشر

كانت ساعتها تُشير إلى الواحدة بعد الظهر عندما انتهت محاضرات اليوم. هبطت إلى الحوش وقف فيه الطلبة والطالبات فى مجموعات يتحدثون. اختارت لنفسها مكانا بعيدًا عند أحد السلالم، وجلست. شعرت أنها تريد أن تتلكأ فى المعهد، أنها غير مقبلة على العودة إلى البيت. فكرت فى الصعود إلى المكتبة لكن الفكرة لم ترقها. ضاقت بالكتب المرصوصة على رفوفها، بالمناضد الخالية لا يجلس إليها أحد غيرها إلا نادرًا، بأمينة المكتبة ذات الملامح المستسلمة ينتشر فيها النمش الأصفر تجلس كالكائن الفاقد الروح، المصمت. أحيانًا عندما تنظر إلى نفسها فى المرآة تبدو لها أن نظرتها هى أيضًا أصبحت فاقدة الروح.

عندما التحقت بالمعهد أقبل عليها أعداد من الطلبة، وحاولوا أن يتبادلوا معها الحديث. كانت تقرأ الإعجاب فى عيونهم مختلطًا بالجوع الجنسى فيصيبها النفور. كفاها ما تعيشه أثناء ساعات الليل. تُدرك أنها جميلة، أن هذا الجمال خطر عليها، على المستقبل الذى تسعى إليه، وفى الوقت نفسه أنه فتح لها الأبواب. أما الطالبات فكانت تقرأ فى عيونهم

الغيرة. تسمع تعليقاتهن وهى تمر إلى جوارهن. "فكرة نفسها "مارلين مونرو" واللا إيه؟ مناخيرها فى السما. شفتى شعرها عامل إزاي؟ والله زى شعر الفيران. ما هى فار كتب. طول الوقت طالعة المكتبة، نازلة من المكتبة. دى ما بتعرفش تمشى وبتلبس زى الشحاتة. مفيش حد طايقها غير الدكتور "السمَّاع". ما هو غريب هو راخر. ما تعرفيش تاخدى منه حق ولا باطل. كل ما تتكلمى معاه يحود على الفن. عجوز وسنانه واقعة. مسكين تلاقيه معاها بيبشرأ عينيه، ما هى على قده".

لكن سرعان ما كففن عن محاولاتهن وتركنها لحالها. اختفت التعليقات، وحل محلها الصمت. انصرفن عنها. ربما أردن أن يشعرنها بأنها لا تستحق التعليق، أنها بلا قيمة. استراحت لهذا التغيير. مرت الأيام وبدأ ينتابها إحساس آخر، إحساس بالجو البارد الذى يحيط بها، وأحيانا بالكراهية. لكن لماذا؟ لم تسئ إليهن. تركتهن لحالهن، فهى مشغولة بحياتها، بالمخاطر التى تُحيط بها، بالسعى نحو أهدافها. بعد أن ينصرف الزبائن تسهر الليل وتحضر إلى المعهد فى الصباح بجفون تكاد تهبط على عينيها. ربما لأنها تتفاداهن، فيظنن أنها تعتبر نفسها أفضل منهن. أما الشباب فلم يحتملوا صدها لهم. جرحت ذكورتهم فأشعرتهم بالعجز، جعلتهم كالصيادين الذين أفلت منهم الصيد. يجب أن تعذرهم. سلوكها هو السبب. لا.. الخطأ ليس خطأها. إنهم كالقطيع لا يُغيرون شيئًا فى أنفسهم. تجربتها فى الحياة هى التى صنعتها، وصفات ورثتها من ستها "عيشة". كانت امرأة قوية ذات شخصية. هكذا كان صوت يهمس فى أعماقها كأنها تُشجع نفسها.

ليلة المسرح أخرجتها من هذا الجو. عندما توجهوا إلى "جروبى عدلي"، وجلسوا فى الصالة التى تطل على الحديقة أحست أنها محاطة بمشاعر دافئة. تحاوروا حول المسرحية التى شاهدوها. اتفقوا، واختلفوا

حولها، لكن طوال الجلسة ساد جو من الود. أعجبها "عزيز المغربي". أحست بنفسها منجذبة إليه. كان قلبها يخفق كلما ينظر إليها.. ربما هو الخوف.. لأول مرة تخاف من نفسها. تُفكر فى لحظة أنها يجب أن تطرده من ذهنها. كان "أحمد عبد الدايم" ظريفًا، لكن اللمعة الغريبة فى عينيه أزعجتها كأن هناك غطاء من الزجاج الأخضر فوق النني. ربما يرتدى عدسات لاصقة. ستسأله.. لا.. ألم تقرر الامتناع عن إقامة علاقات مع الطلبة فى المعهد؟ لا بد ألا تتراجع عن هذا القرار.

منذ أن رأت "علوية رستم" على خشبة المسرح أحست أنها قريبة منها. تملكها شعور بالضيق من نفسها. فى الفترة الأخيرة ابتعدت عن طبيعتها الأولى، هذا الانطلاق، وهذه الحرارة.. هذه القدرة على التعبير عن مشاعر مختلفة.. هذه الفرحة المضيئة، وهذا الحزن الجميل. طوال الساعتين كانت "علوية" مثل القلب الذى ينبض ويضخ الدماء فى أفراد الفرقة.. إلى متى يظل قلبها هى متوقفًا عن النبض؟ إلى متى تظل لا تعرف من الحب سوى الرجال الذين يخترقون جسدها؟ بين ساقيها ما زال الجرح مفتوحًا، وفى صدرها ما زالت تشعر بالكراهية لنفسها. الأفضل أن تُفكر فى أشياء أخرى غير الحب. ستتفوق على "علوية رستم" لكن كيف؟ هل هذا ممكن إذا لم ينبض قلبها؟ من يستطيع أن يجبها على هذا السؤال؟ من؟!

رفعت رأسها وتأملت السماء. كانت زرقاء حيادية كأنه لا يهمها شيئًا. الشمس يشع منها الدفء. كتلة ضخمة من الاشتعال تُضىء الدنيا. فيها انفجارات لا تتوقف تطلق الطاقة. قرأت عن الكون وكيف نشأ بانفجارة كبرى. مع كل يوم تكتشف أشياءً جديدةً تنقلها من الفن إلى العلم ومن العلم إلى الفن. تريد أن تتحدث عن كل هذا مع صديق، أن تبثه ما يعتمل فى نفسها، أن تحكى له الرحلة التى عاشتها. لا يوجد فى حياتها سوى "أم هاشم"، لكن من المستحيل أن تتجاوب معها فى الأفكار التى تطرأ على ذهنها وتُحركه.

أدركت فجأة أنها جالسة أسفل المبنى الذى يُوجد فيه مكتب الدكتور "السماع". نظرت إلى ساعتها. كانت تُشير إلى الثانية إلا ربعًا. ستصعد إليه. إنه لا ينصرف عادة قبل الساعة الثالثة. صعدت السلم بقفزات سريعة، ونقرت على بابه. سمعت صوته وهو يقول: "تفضل.. ادخل". خطت داخل الحجرة الصغيرة التى احتلها منذ أن أصبح أستاذًا غير متفرغ فى المعهد. كان جالسًا إلى مكتب داكن اللون نقله من بيته. قال لها: "أحب ملمس خشبه، ولونه.. يُوحى لى بالأصالة، بالشيء المبذول فيه جهد، لم يكلفنى شيئًا. صنعه أخى النجار من ألواح لخشب "التيك" كانت مركونة عنده بعد أن اختلف مع أحد الزبائن".

خلف المكتب ارتفعت الرفوف حتى السقف تحمل دوسيهات، وكتبًا، وشرائط مسجلة لمحاضراته. فى الركن على عتبة النافذة انتصب إناء مستطيل من الزجاج الشفاف فيه وردة. كان يرتدى صديريًا، وقميصًا أزرق مخططًا رفع كميه كاشفًا عن ذراعين عضلاتهما بارزة كأنه تعود العمل اليدوى فى مرحلة من حياته. أطفأ السيجار "التوسكاني"، الرفيع الأسود الذى كان يُدخنه عندما دخلت ورحب بها قائلاً:

"أهلاً يا "نور".. أهلاً.. اجلسي"، مشيرًا إلى المقعد الوحيد فى الغرفة. "اجلسي.. كيف أحوالك"؟ تأملها لحظة ثم استطرد: "صحتك تحسنت كثيرًا. عندما حضرت إلى مكتبى أول مرة كنت نحيلة بشكل ملفت للنظر".

ضحكت فى سرور دون أن تعلق. قال:

"لم نتحدث منذ مدة. كيف أحوال الدراسة؟ لعلك راضية عنها"؟

قالت:

"مواظبة لكنى لست راضية.. ما عدا محاضرات حضرتك لا أشعر أننى أتعلم شيئًا".

"شكرًا يا بنتي. يُسعدنى أن أسمع هـذا، ويُحزننـى فى الوقـت نفسـه.. سمعت أنه حدث تجمهر للطلبة فى الأسبوع الماضى انتقد فيـه أحـدهم مـا يدور فى المعهد. كنت فى البلدة فى هذا الوقت، من هو هذا الطالب"؟

قالت:

"اسمه "عزيز المغربي".

"هل تعرفينه"؟

قالت:

"لا ..".

"سمعت عنه أنه عنصر مشاغب. حالنـا لا يسر، لكـن حكـم الشـباب أحيانًا يكون أقسى من اللازم".

"شعرت أن ما قاله هو الحقيقة. لكنى لا أعرف عنه شيئًا".

"المهـم هـو أن تـواظبى حتـى يـتم التخـرج. بعـد ذلـك سـتختارين طريقك. هل هناك شيء أستطيع أن أفعله من أجلك"؟

خطر فى بالها فجأة أن تسأله:

"هل تعرف ممثلة اسمها "علوية رستم"؟

استقرت عيناه الصافيتان فى عينيها. قال:

"لم تسألين"؟

"منذ أسبوع شاهدتها فى "رقصة الموت الجميل" لعبت الدور الـرئيسى فى المسرحية. أعجبتنى جدًا، ومنذ رأيتها لم أستطع أن أنساها".

"نعم أعرفها بل هى إحدى تلميذاتى وتزورنا أحيانًا فى البيت. أتريدين التعرف عليها"؟

أحست أنها تريد أن تقفز من مقعدها، وتحتضنه. هتفت:

"طبعًا.. إن كان هذا ممكنًا".

"وهو كذلك.. سأرتب لك لقاءاً معها.. ماذا تفضلين.. هنا أم في بيتي؟.. المكتب صغير، وفي البيت سنكون على راحتنا. إنك لم تلتقى بزوجتي".

مر أمامها وجه الشاب قريبه الذى زارها في إحدى الليالي. قالت:

"المكتب أفضل حتى لا أتعبكما".

"وهو كذلك، وإن كنت أحب أن تقومى بزيارتنا.. مرة أخرى إن شاء الله.. هل أعجبتك المسرحية"؟

"أعجبتنى جدًّا رغم أن موضوعها غريب علي، وأشعر بشيء من التحفظ إزاءه. لكن تمثيل "علوية رستم" أضفى عليه جوًّا إنسانيًّا. تفاعلت معها كامرأة قوية، مرهفة الحس".

"لكن موضوعها يتعلق بما نعانى منه. ألا ترين ما يدور من حولنا؟ اندهشت أنهم صرحوا بعرضها فى المسرح القومي. ربما يُريدون إعطاءنا فرصة لننفس عن أنفسنا. فنانة أنت يا بنتي، أنا سعيد بك، وبالصدفة التى جعلتنا نلتقى فى القطار الذى حملنا إلى "القاهرة" فى تلك الليلة. ربنا يحميك".

***

الفصل الحادى عشر

أصابع غليظة تضغط على وجهها وتكتم أنفاسها، لكنها عاجزة عن المقاومة، عن دفعها بعيدًا. جسمها لا يُطيعها كأنه مُحاط بصبة من الجبس تحول بينه وبين الحركة. تشعر بيد تدفعها من الخلف. تسقط فى هوة مظلمة، لكن فجأة يتوقف سقوطها وتصبح طفلة تجرى على أرض حجرية هاربة من فأر يعدو وراءها له شارب كبير وعينان صغيرتان حمراوان. تحاول أن تصرخ لكن صوتها مكتوم لا يخرج منها. يختفى الفأر وتجد نفسها جالسة فى قارب ينساب فوق النيل، وأمامها امرأة تشبه "علوية رستم" ممسكة بالمجدافين تبتسم لها وتسألها:

"هل تجيدين السباحة؟ أمى علمتنى السباحة على "شاطئ جليم"، وتُطلق ضحكة مفعمة بالمرح فيغزوها شعور بالاطمئنان ممزوج بالغيرة.

فتحت عينيها. كان ضوء النهار يتسلل من الشيش. ظلت راقدة فى سريرها تسترجع الحلم تجسدت تفاصيله فى ذهنها، الأصابع القوية للمرأة حول المجدافين، ضحكتها الرنانة تشبه ضربات مطرقة صغيرة على إناء من الفضة، والفأر يُحرك شاربه الكبير وعينيه الصغيرتين الحمراوين كأنه انبعث

من الماضي. دفنت رأسها تحت اللحاف لتمحو صورته، وتسكت الرعشة التى تُثيرها فى جسمها. الدكتور "السماع" قال لها إن استرجاع الأحلام مهم، إن عالمًا سويسريًا يدعى "يونج" أوضح فى كتاب له أن الأحلام تُشير إلى ما يُدفن فى أعماقنا، وأحيانًا إلى الطريق الذى يجب أن نسير عليه. ستطلب منه استعارة النسخة المترجمة التى يحتفظ بها فى بيته. تعود إليها عيناه وهو جالس خلف مكتبه تضيئان كالمصباحين وسط التجاعيد. لا ينظر إلى جسمها مثل باقى الرجال. ربما مرة واحدة فقط عندما حدثته عن "علوية رستم". تُرى لماذا؟ إنه يعجبها. يخاطب عقلها، وأحساسيها، لكن الرجال لا يختلفون كثيراً. يجب أن تحتاط رغم كبر سنه، وربما من أجل هذا. ستبحث عن الكتاب بدلاً من اللجوء إليه.

التفتت إلى المنبه الموضوع إلى جوارها على "الكومودينو". كانت العقارب تشير إلى السابعة والنصف. أزاحت اللحاف، وقفزت من السرير. فتحت باب غرفتها واجتازت الصالة الصغيرة لتذهب إلى الحمام. وجدت "أم هاشم" جالسة فى المطبخ أمام قدرة من الفول فتحتها لتضيف إليها قليلاً من الماء الساخن. قالت:

"صباح الخير يا ماما. أنا مستعجلة النهارده جوى. عندى محاضرة الساعة تسعة ومش حالحج أفطر. حأشرب شاى بس".

"صباح النور يا نور عيني. دايمًا كده مستعجلة؟! يعنى من كتر ما بتاكلي؟ على الأجل خديلك "سانداويتش" ولا حاجة".

"طيب يا ماما. اعميلهولى بس حطيه فى كيس عشان أخده معايا وآكله فى المعهد، وحطيهولى فى الشنطة. حلبس وأنزل علطول".

تبعتها العيون وهى تعدو فى الشارع. استقلت الأتوبيس من ميدان "باب الخلق" وهبطت منه فى محطة "الطالبية"، ثم أسرعت الخطوة فى الطريق المنحدر إلى المعهد. عندما اقتربت من بابه وجدت تجمعًا من

الطلبة يسد الطريق، وعددًا من الطالبات توقفن على الرصيف لتشاهدن ما يدور. جاءتها أصوات غاضبة، وشتائم تتردد صارخة. "يا بن الكلب، يا مأجور. يا عميل، يا كافر، يا منحل. بتقول الحجاب مش فرض زى الصلاة"، ثم أصوات ترد صارخة: "يا بتوع الدقون، والقباقيب، يا منافقين ياللى شغالين مع المباحث والحكومة". فقررت أن تمر بعيدًا عن العراك الدائر. صعدت على الرصيف واستأنفت سيرها نحو المعهد. لمحت عصًا ترتفع فى الجو وتهبط. تردد ارتطامها بجسم طرى، وارتفعت أصوات زاعقة: "ياجبنا.. سيبوه"، وفجأة وسط كتلة الأجسام المتصارعة ظهرت رأس "عزيز المغربي" أعلى الرؤوس ثم اختفى ليبرز من جديد، فأدركت أنه محاصر بين عدد من الطلبة تكالبوا عليه ومن بينهم الشاب صاحب العوينات الذى حرض عليه حراس الأمن يوم أن كان يخطب فى حوش المعهد. لمحته وهو يُطوق عنقه من الخلف بإحدى ذراعيه ليشله عن الحركة، بينما راح زميل له يُوجه إليه ضربات عنيفة بقضيب معدني.

تسللت بسرعة بين الصفوف. كانت ترتدى بنطالاً، وقميصًا رجاليًا، وكان شعرها مقصوصًا فلم يتنبه إليها أحد. وصلت خلف الشاب صاحب العوينات السود وتوقفت لحظة، ثم أخرجت سكينًا من جيب فى البنطال عند ساقها وطعنته طعنة صغيرة فى فخذه، فصرخ من الألم وسحب ذراعه. انتهز "عزيز المغربي" الفرصة ليوجه لكمة إلى الطالب الذى كان يضربه، واندفع مفلتًا من الحصار قبل أن يعدو فى اتجاه شارع "الهرم"، فبوغت الملتفون حوله ولم يتمكنوا من اللحاق به. ابتعدت بهدوء، مستفيدة من حالة الفوضى التى حدثت، وانضمت إلى مجموعة من الطالبات اكتفين بما رأينه واستأنفن سيرهن إلى بوابة المعهد.

كان الدكتور "السماع" قد حدد لها موعدًا فى الساعة الثانية عشرة والربع للالتقاء بـ"علوية رستم"، لكنها كانت متوترة. فى هذا اليوم كانت

لديها محاضرة ثم "سيكشن" قبل الموعد، شعرت بنفسها عاجزة عن شحذ انتباهها. اكتفت بالنظر إلى المحاضر كأنها تتبع ما يقوله، وورطت نفسها لإنقاذ "عزيز المغربي" من الاعتداء الذى كان واقعًا عليه. ربما رآها أحد الذين كانوا موجودين فى الجمع وهى تخرج السكين. تصرفت دون تفكير. ما لها وما لكل هذا؟! لم تُطق أن تبقى مكتوفة اليدين وهو يُضرب بهذه الوحشية. ترى هل أصابته جراح خطيرة؟ أغلب الظن أن لا أحد تنبه إليها. دربتها "سامية" على استخدام السكين بطريقة خفية. له جراب خاص فى البنطال تسحبه منه وتعيده إليه، وسائل خاص تحتفظ به فى البيت لإزالة أى آثار أو دماء تظل عالقة به أو بالبنطال. قالت لها : "يا "نور" إنتى دخلت فى كار مفيهوش أى رحمة، كار كله عنف ضد النسوان اللى زينا، اللى ما لهمش ضهر، لا حكومة، ولا بوليس، ولا قانون، ولا حد خالص يحميهم. بالعكس. دول كلهم رباطية ضدهم. إلا إذا كان عندك "معرس".. قواد زى ما بيقولوا. هو يمكن يحميك لكن حيعذبك أكتر من أى حد غيره. الرجالة كلهم بيعتبرونا فريسة ياكلوها وهى حية بفلوسها، وجسمها، وكل حاجة فيها. لازم تقدرى ساعات تدافعى عن نفسك. السكينة دى بيسموها سلاح أبيض". تراها وهى تضحك فى سخرية، وتمد إليها يدها بالسكين، ثم ترى نفسها وهى ممسكة به بين أطراف أصابعها فيكاد يسقط منها. تسمعها تقول "كده ما ينفعش يا بنتي". تُمسك به وتُوجهه إليها. "كده".. ترى الشراسة فى عينيها الصفراوين مثل النمرة الهندية جاءت فى التليفزيون ضمن برنامج عن الحيوانات المفترسة. هذه أول مرة تستخدمه فيها.. لا ثانى مرة.. المرة الأولى كانت فى الأتوبيس. نغزة صغيرة كما علمتها "سامية" فى بطن الشاب الذى انتصب قضيبه والتصق بها. ابتعد على الفور. تدلت شفته العليا الغليظة فى اندهاش ولم ينطق. إنها تضاجع الرجال لكن باختيارها، وبمقابل. لا أحد يفرض عليها قضيبه.

لا تظن أن أحدًا رأى ما فعلته اليوم. عندما ينظر إليها "عزيز" تقرأ الفرحة فى عينيه. هل لذلك تدخلت لإنقاذه؟ لا أحد تبدو عليه الفرحة عندما يقابلها. ما الذى يدفعه إلى الانغماس فى مثل هذه المعارك، مع من تسميهم "أم هاشم" بتوع السياسة، وتصفهم بأنهم نصابون؟ "شفتهم، وسمعتهم فى بيت الخواجة "صاروفيم". كنت بأدخلّهم القهوة وساعات الويسكي، والأكل وهم جاعدين. ناس من الحكومة، وناس بيجولوا على نفسهم انهم ضد الحكومة. كان بيوكلهم، ويشربهم، وبيديهم فلوس عشان يحموه. ده كان عنده جصر فى "الزمالك" مبانيه من "إيطاليا"، متبعترة على فدانين. اسمعى كلامى يا بنتي. كلهم نصابين. الكبار فيهم وكمان الصغيرين اللى بيتكلموا على الغلابة عشان يوصلوا زى التانيين". اليوم ستلتقى بـ"علوية رستم". لماذا تنسى هذا؟ ألقت بنظرة سريعة على معصمها. تشعر بشيء كالحمى تجتازها. ما فائدة جلستها فى هذا المكان؟ الوقت ينقضى ببطء السلحفاة ويضيع.

انتهى "السيكشن" وتأهب الطلبة للانصراف فاندفعت لتخرج من باب القاعة قبلهم. هبطت على السلم بقفزات سريعة، وتوجهت إلى المبنى الموجود على بعد خطوات، صعدت فيه إلى الدور الرابع حيث مكتب الدكتور "السماع". نقرت على بابه ودخلت. وجدته جالسًا وحده منهمكًا فى قراءة بعض الأوراق. أشار إليها بالجلوس، وسألها إن كانت تريد أن تشرب قدحًا من القرفة باللبن. وافقت فصب لها فى القدح من "ترموس" وضعه على رف إلى جواره. انبعثت أمامها صورته وهو جالس فى القطار يصب لها من ترمس الشاى فى الغطاء ليلة رحيلها عن الدوار. سألته إن كان هو "الترموس" نفسه. ضحك وقال:

"يا بنتى فات على تلك الليلة ما يزيد عن عشر سنوات وما زلت تتذكرين؟ لا ليس هو. "الترموس" القديم فى البيت، ربما وضعته زوجتى

"سعاد" فى الصندرة أو فى مكان آخر. إنها تأبى أن تتخلص من أى شيء، مهما كان قديمًا. تقول إنه ربما ينفع فى يوم من الأيام".

تردد نقر على الباب وفُتح، فالتفتت إلى المرأة التى ظلت واقفة قبل أن تدخل، طولها فوق المتوسط، وشعرها الكستنائى المحمر يسقط فى موجات غزيرة على كتفيها ليحتضن وجهها الحاد الملامح. كانت واقفة مثل ممثلة تنتظر إلى أن يهدأ الجمهور لتخطو إلى مقدمة خشبة المسرح. تسمرت نظراتها عليها. أحست بأنفاسها تُخطف، فظلت جالسة لا تتحرك، وقام الدكتور "السماع" من جلسته ودار حول المكتب. شد على يد المرأة بحرارة ما زالت واقفة دون حركة وقال:

"أهلاً يا "علوية"، أهلاً وسهلاً".

خطت داخل الغرفة. أجلسها على مقعد كان قد أحضره استعدادًا لحضورها. لم تعرف هى كيف تتصرف. ظلت جالسة فى مكانها، غارقة فى عينين واسعتين رماديتى اللون تتخللهما زرقة تُطلان عليها. استطرد الدكتور "السماع":

"علوية رستم"، ثم أشار إليها وأضاف: "نور عسران"، تلميذتي، جاءت من الصعيد، والتقيت بها أول مرة فى القطار منذ عشر سنوات. كنا نتذكر هذا قبل أن تصلى يا "علوية".

فحصتها العينان دون استعجال. ظلت هى تنظر إليها فتلاقت العيون. طال الصمت كأن كلاً منهما لم يتوقع ما رآه. تدخل الدكتور "السماع" قائلاً:

"علوية" من أصل فلسطينى يا "نور"، لكنها مقيمة فى "مصر" منذ مدة". أشار إليها بالجلوس فجلست ثم قالت:

"أمى فلسطينية، وأبى مغربى هاجرت أسرته إلى إسبانيا، ثم جاءت إلى مصر واستقرت فيها".

قال الدكتور "السماع" موجهًا كلامه إليها:

"تصورى، أعرفك كل هذه السنين وظللت أعتقد أنك فلسطينية الأب والأم. على أى حال أنا مؤمن باختلاط العروق. إنها تُعطى سلالات متميزة. ما رأيك يا "نور"؟

لم تعرف بماذا ترد، فأحست بالحرج. خرجت منها الكلمات مندفعة سريعة تنم عن التوتر:

"لست أعرف. أنا صعيدية مائة فى المائة".

قالت "علوية":

"المصريون خليط من عشرات الأجناس، شعب قديم عاش فى منتصف الكرة الأرضية. رحل الكثيرون إلى "مصر"، وتعرضت لغزوات مستمرة". ابتسمت إليها فتعمقت الزرقة فى عينيها..

قال الدكتور "السماع":

"يا "علوية" رأتك "نور" فى مسرحية "رقصة الموت الجميل"، وأُعجبت بتمثيلك جدًا. سألتنى عنك فعرضت عليها أن تلتقى بك هنا فى مكتبى أو فى البيت فاختارت المكتب. تُريد أن تُصبح ممثلة مسرح. وهى فى رأيى إنسانة جادة، وحساسة، وأمامها مستقبل".

قالت "علوية":

"أنا سعيدة بلقائك يا "نور".. وأريد أن نتعرف أكثر، فأنا أثق فى تقدير أستاذى الدكتور "السماع". ساعدنى كثيرًا أثناء الدراسة، وفى وقت كانت ظروفى فيه صعبة. تزوجت من زميل لى فى المعهد وبعد سنة انفصلنا. لكن أريد أن أسألك. لماذا اخترت أن تكونى ممثلة مسرح"؟

شجعها الاهتمام الذى قرأته فى عينيها

"أشعر أن داخلى أشياء تُريد أن تخرج مني. أشياء لا أستطيع أن أواجه بها الناس لأنها غامضة، وأخاف ألا يفهموني، فربما استطعت أن أعبر عنها من خلال امرأة ليست أنا".

بدا على "علوية رستم" التأثر. قالت:

"عيناك تتحدثان عنها. إنها لغة أستطيع أن أفهمها. لكن أعطينى مثلاً حتى تتضح لى أكثر".

نظرت إلى الدكتور "السماع". ترددت ثم قالت:

"ليس فى ذهنى مثل الآن، ربما لأنها ما زالت غامضة بالنسبة إلى".

تدخل الدكتور "السماع":

"يبدو أننى سأتوه بينكما فأنا لم أعد أعرف إن كنتما فى مكتبى أم على خشبة المسرح. هذه هى صعوبة التعامل مع اثنتين من الممثلات مثلكما".

ضحكت "علوية":

"اعذرنا إن كنا قد نسينا أنفسنا لكن أنت السبب. عرفتنى بامرأة أثارت فيَّ رغبة لمعرفتها أكثر. لا بد أنه تنتظرك أعمال فى المعهد. سأتصل بك قريبا. لم أزركم فى البيت منذ مدة"، ثم ملتفتة إلى "نور" سألتها:

"هل عندك ما تريدين عمله فى المعهد الآن"؟

قالت:

"لا .. ليس عندى شيء".

"إذن لماذا لا نتوجه سويًّا إلى مقصف لنكمل حديثنا"؟

هزت رأسها بالموافقة، وقالت:

"يُوجد مقصف صغير أعرفه ليس بعيدًا عنا".

ودَّعهما الدكتور "السماع" عند الباب قائلاً:

"مع السلامة، سأترككما. عندى محاضرة بعد خمس دقائق".

وهما تهبطان على السلم أحست بأصابع "علوية" الدافئة تضغط على ذراعها.

***

الفصل الثانى عشر

تحسست ذراعه الملفوفة فى رباط من الشاش. سألته:

"أهى تؤلمك"؟

قال

"لا.. لا يوجد فيها ألم الآن. لكن عندما هبطت الضربة عليها شعرت بألم شديد. كدت أن أصرخ".

"كدت"؟

"ربما تعودت أن أتحمل الألم. كنت أتمرد وأنا طفل فصار أبى يضربنى بعنف. وفى المدرسة كان هناك مدرس يتلذذ بضربى على أصابعى بمسطرة من الخشب لها حواف رفيعة من الصلب. فى إحدى المرات كسر لى إصبعًا".

قالت:

"أرنى إصبعك".

مد يده أمامها. تأملت الأصبع الصغير. كان مفصله معوجًا سألته:

"لماذا كان يضربك"؟

"كان يدرس لنا التاريخ وعندما مات عبد الناصر أخذ يُهاجمه بينما كان يمدحه أثناء حياته، فواجهته فى الفصل، وذكّرته بما كان يقوله عنه من قبل. لم يغفر لى هذا. أصبح يضربنى إذا جاوبت على سؤال يُوجهه إلى، ويضربنى إن سكت. يوم أن كسر إصبعى فكرت فى الهروب من بلدتنا والذهاب إلى "القاهرة". قفزت فوق السور وسرت على الطريق من "ميت سلسيل" حيث كنا نقيم إلى "دكرنس" والدموع تسقط من عيني. لكن تصادف أن التقى بى خالي. كان راكبًا جحشته فى طريق العودة من سوق "دكرنس"، فأركبنى وراءه وأخذنى إلى المستشفى، وهناك وضعوا جبيرة حول أصبعي، ثم عدنا إلى الدار. قلت لأهلى إننى سقطت من فوق جحشته بينما كان يبتاع فأسًا من السوق".

" يقولون عنك فى المعهد إنك مشاغب، وشيوعي. ماذا تعنى كلمة شيوعي"؟

استقرت نظرته على وجهها لحظة كأنه يحاول أن يستشف ما الذى وراء سؤالها. بادلته نظرته بثبات. سألها:

"من قال لك هذا"؟

قالت:

"الدكتور "السماع".

"رجل طيب، لكنه يعيش فى برج عاجي. ما علاقتك به"؟

"قابلته منذ سنين فى القطار وأنا قادمة من بلدتنا "الصوامع" لمواصلة دراستى فى "القاهرة".

"الصوامع"؟ أين هى"؟

"فى محافظة "سوهاج".

"وبعد ذلك"؟

"عندما أنهيت المرحلة الثانوية بحثت عنه لأستشيره. قلت له إننى أريد أن أصبح ممثلة، فاقترح علىَّ أن ألتحق بمعهد المسرح. لكن يبدو أنك لست مقتنعًا به، رغم أنه الوحيد فى المعهد الذى يقول شيئًا مفيدًا فى محاضراته. أنا مثله ليس لى فى السياسة، ولا أريد أن أقترب منها".

"السياسة تدخل فى كل شيء. إنها تفرض نفسها علينا سواء أردنا أو لم نرد. من يتجاهلها يتركها للذين يستخدمونها لخدمة مصالحهم".

قالت:

"المسرح لا علاقة له بالسياسة".

ابتسم، فسألته بنبرة فيها ضيق:

"لماذا تبتسم؟ أتظن أنك تفهم أكثر مني؟ أمثالك لا يفهمون شيئًا عن الشابات أمثالي... إنك...".

صمتت فجأة. لم يعلق.. زحف الوجوم على وجهه. ظل يحملق فى الحشيش الأخضر الممتد تحت أقدامهما. توقف أمامهما بائع للترمس وهو يهسهس: "ترمس... ترمس"، بطريقة زادت من توترها. سألها:

"أتريدين بعضًا من الترمس"؟

لم تنظر إليه. قالت:

"لا... لا أريد شيئًا".

فأشار للرجل بيده لكى ينصرف ثم التفت إليها

"لماذا غضبتِ مني؟ هل لأننا اختلفنا فى الرأى".

"لم أغضب لأننا اختلفنا".

"لماذا إذن"؟

"لم تعجبنى ابتسامتك. أنا أعرف أشياء لا تخطر على بالك".

"مثل"؟

"لا أريد أن أستمر فى هذه المناقشة. أتجيبنى على سؤالي"؟
"سؤالك"؟
"نعم.. سألتك ماذا تعنى كلمة شيوعية؟ أهو سؤال تافه"؟
تراجع فى جلسته على الدكة وبدا عليه الارتباك.
"لا، أبدًا. لكن لا أستطيع أن أجيب على سؤالك فى جملة. أعدك بـالرد فى فرصة أخرى. الوقت يمر وبعد قليل يجب أن أنصرف. عندى اجتماع".
"وأنا أيضًا يجب أن أعود إلى البيت".
تردد لحظة ثم قال:
"أنا عند وعدى إن وعدتنى بالرد على سؤال يشغلني".
"سؤال يشغلك؟ ما هو"؟
"مـا الـذى يجعـل فتـاة مثلـك تحمـل سـكينًا فى جيـب بنطالهـا، وتستخدمه لتطعن به الناس"؟
أحست بالدماء تهرب مـن وجهها. جـف حلقها وأخـذ قلبها يـدق دقات سريعة. صارعت لكى تتحدث بهدوء. سألته:
"كيف عرفت"؟
"أحمد عبد الدايم" كان واقفًا سـاعة العـراك. حـاول أن يـدافع عنـى لكن أحاط به عدد منهم وأبعدوه. لمحك وأنت تتسـللين بـين الصـفوف ثـم تخـرجين السـكين مـن جيـب جـانبى فى البنطـال وتغرسـين طرفـه فى ظهـر الشاب الذى لف ذراعه حول عنقي. وصف الطعنة التى وجهتيهـا إلى ذلـك البلطجى المرشد فى المباحث بأنها كانت مدروسة".
طارت الردود من ذهنها ففتحت حقيبتها وأخرجت محفظـة صـغيرة وضعتها فى جيب السترة التى كانت ترتديها. سألته:
"ماذا يعنى أنه مرشد للمباحث"؟

فحصها بنظرة متسائلة. نطق الكلمات ببطء كأن ذهنه انشغل بشيء. قال:

"معناه أنه يتعاون مع أجهزة الأمن السرية فى متابعة حركات الطلبة. ما زلت أنتظر الرد على سؤالي".

استدارت وألقت إليه بنظرة فيها تحدٍّ:

"سأرد عليك فى فرصة أخرى. وهذا وعد مني".

قال:

"بصرة. اتفقنا. كل منا مربوط بوعده. لكن لدى سؤال آخر بعيد عن كل هذا. إذا طلبت منك كشكولك مرة أخرى هل ستتجاهليننى كما فعلت من قبل"؟

ترددت ضحكتها فى موجات متصاعدة، فتبدد جو التوتر الذى سيطر عليهما.

قالت:

"لا.. اطلبه فى أى وقت. أنا آسفة لتصرفى السابق. لم أكن أعرفك".

"وهل تعرفيننى الآن إلى درجة المخاطرة بسمعتك، للدفاع عنى كما فعلت فى ذلك اليوم"؟

حملقت فى مياه النيل. لمحت رعشة صغيرة فى ركن فمه. استطرد:

"لم أشكرك على ما فعلته من أجلي. عجزت عن الاهتداء إلى الكلمات التى يُمكن أن تعبر عن إحساسي".

ظلت صامتة تتأمل المياه ارتفع منسوبها. لا بد أنهم فتحوا بوابات السد. ترى هل ما زالت أمها على قيد الحياة؟ وستها "عيشة"؟ لم يرد أحد على رسالتها. ستطلب من "أم هاشم" الاتصال بابن عمها "محمود"، أو الأفضل أن ترسل إليهما خطابًا آخر. قالت ببطء كأنها تختار كلماتها:

"لا... ما زلت لا أعرفك. لكن عندما تجاهلتك فى ذلك اليوم رأيت الغضب يلمع فى عينيك، ورأيته ينقشع ليظهر الصفاء الذى توارى خلفه. ورأيتك وأنت تسعى إلىَّ يوم التقينا فى المسرح".

لم يعلق. رفع الحقيبة التى وضعها تحت الدكة وأخرج منها كيسًا. قال:

"أنا جعت. معى ساندوتشات فول وطعمية".

أخرج "الساندوتشات" من الكيس. قدم إليها رغيفًا صغيرًا لفه فى منديل من الورق. قال:

"فول بالطحينة".

تناولته منه. أخذا يقضمان من "الساندوتشين" ببطء، وهما ينظران إلى النيل تحركت فوقه أمواج صغيرة.

***

الفصل الثالث عشر

دقت جرس الباب وانتظرت. لم يفتح أحد، فدقت عليه مرة ثانية. سمعت خطوات، ثم صوت مزلاج. فتح الباب وأطل عليها وجه الدكتور "السماع" أشرق عندما رآها. قال:

"أهلاً.. أهلاً يا "نور".. ادخلي.. ادخلي". أفسح لها الطريق، "آسف إن تأخرت عليك. سمعى أصبح ضعيفًا، وزوجتى "سعاد" مشغولة بإعداد أشياء فى المطبخ".

قادها عبر الصالة الصغيرة إلى حجرة الاستقبال. أجلسها على مقعد قرب النافذة ثم قال:

"دقيقة واحدة. سأخبر "سعاد" أنك حضرت".

دارت بعينيها حول الحجرة. مقاعدها، وأريكتها مغطاة بقماش أزرق بهت لونه، وعلى جدرانها علقت صور لـ"طه حسين"، و"بيرم التونسي"، و"سيد درويش"، وصورة عائلية لرجل يرتدى جبة وقفطان جالسًا، وإلى جواره امرأة يرتفع قوامها أعلى منه. جسمها القوى ملفوف فى جلباب أسود، وحول رأسها شال طويل يكشف عن جزء من شعرها. أحاطهما عدد

من الأطفال صبيان، وبنات من أعمار مختلفة يقفون كأن المصور أرغمهم على الالتصاق ببعضهم خوفًا من أن يسقط أحد منهم خارج الصورة.

عاد بعد قليل فلمحها وهى تتأملها. قال:

"أسرتنا. كنا تسعة وأنا فى الصف الثانى على اليمين". لمحت صبيًا انشغل بشيء بعيدًا عنه، "مات أبي ونحن جميعًا صغار. ترك عددًا من الفدادين، فتولت أمى بيعها بالتدريج حتى تقوم على تربيتنا وتعليمنا. وبعد أن تخرجنا جميعًا من الجامعة ماتت. كنت طفلها المفضل، أنا وإحدى أخواتى الأصغر مني". أشار إلى بنت فى الصورة. " تعيش الآن فى "دمشق" مع زوجها الناشر". تأملت الفتاة الصغيرة تشبه أمها. لمحت فى عينيها نظرة تحدٍّ. "كنا متنافسين دائمًا وعلى الأخص لنيل رضى أمنا".

جلس على الأريكة معطيًا ظهره للنافذة الواسعة المغطاة بستارة خفيفة لمحت من خلفها حقولاً للقمح."انتقلنا إلى منطقة "الهرم" منذ سنة حتى نطل على مساحات فيها خضرة، لكن العمران ينتشر بسرعة". ثم كأنه تنبه نظر إليها وأضاف: "نسيت أن أهنئك يا "نور" بدرجة الامتياز التى حصلت عليها. كنت متأكدًا أنك ستحققين نتيجة مشرفة و...".

قاطعته:

"لولاك ما أمكن ذلك. كنت مشجعي، وسندى المعنوى طوال السنوات الأربع للمعهد".

"لا.. ليس هذا هو المهم. ربما ساعدتك فى بعض الأمور. أنت التى صنعت نفسك، وصنعت النجاح الذى حصلت عليه. بالمناسبة اتفقت مع "علوية" أن تحضر فى الساعة السادسة لتحتفل معنا بنجاحك. أردت أن تكون مفاجأة لك"، نظر إلى معصمه قبل أن يُكمل، "فى الوقت نفسه حرصت على أن تأتى متأخرة عن موعد حضورك حتى نتداول فى أمر ربما يهمك".

ظهرت امرأة فى فتحة الحجرة فالتفت وقام واقفًا.

"سعاد" زوجتي.. هذه هى تلميذتى "نور" التى حدثتك عنها"، وأضاف ملتفتًا إليها: "للأسف لن تلتقى بأحد من أبنائى أو بناتي، كبروا جميعًا وتركوا البيت ليكونوا أسرهم".

تذكرت الحفيد الذى زارها فى إحدى الليالي، فتنفست الصعداء. قال:

"فى الحقيقة لم أدع أحدًا منهم حتى نحتفل بك فى هدوء".

لمحت فى وجه زوجته مسحة من الحزن وهى تقول:

"الأولاد كانوا يملأون علىّ البيت".

نطقت هذه الجملة ثم أضافت: "أسعدتنا بوجودك يا أستاذة "نور"، لكن لا بد أن أتركك قبل أن تحضر "علوية". صنعت بعض الحلويات بمناسبة نجاحك وما زالت فى الفرن".

قالت:

"أشكرك. أرجو أن تعودى إلينا بسرعة".

تدخل الدكتور "السماع":

"إعداد الحلويات هوايتها المفضلة، إنها طباخة ماهرة".

أحست بالضيق. تأملت وجه زوجته الأملس الشاحب، فتراءى لها وجه "أم هاشم" الخشن الملامح ينطق بالحيوية، قالت:

"ستنضمين إلينا بعد قليل بالطبع"؟

هزت رأسها فى صمت واختفت. التفت إليها الدكتور "السماع" وسألها:

"أما زلت راغبة فى أن تصبحى ممثلة مسرح"؟

قالت:

"أكثر من أى وقت مضى".

"حسنًا. أثناء زيارة إلىَّ قامت بها "علوية" منذ أسبوعين حدثتنى عنك. قالت إنها تبحث عن ممثلة شابة يمكن أن تنضم إلى الفرقة وقادرة على القيام ببعض أدوارها عندما تغيب هى لسبب أو آخر. يبدو أنك تركت عندها أثرًا طيبًا للغاية، فطلبت منى أن أفاتحك فى هذا الموضوع".

قفز قلبها تحت الضلوع. نظرت إلى الدكتور "السماع" كأنها ليست متأكدة مما سمعته. لم ترد، فسألها:

"مالك يا "نور"؟ يبدو أنك غير متحمسة لهذا الموضوع".

قالت:

"غير متحمسة"؟! أخذت نفسًا عميقًا. "منذ أن رأيتها وأنا أحلم بالعمل معها. لكن لماذا لم تفاتحنى هى مباشرة"؟

"ربما خشيت من إحراجك، ورأت أن معى ستكونين على راحتك. لكن أنت إذن مرحبة بالعمل فى فرقتها. هذا شيء عظيم. وأنا شخصيًا أحبذ تعاونك معها. إنها فنانة ستستفيدين من عملك إلى جوارها. ستفتح لك أبوابًا مهمة". تردد لحظة: "وستمهد الطريق أمامك. مع ذلك لن يكون سهلاً. ستواجهين عقبات فى الوسط الفنى تسللت إليه التجارة وأصبح متحللاً وفاسدًا. لم يعد من السهل أن يدافع الفنان عن فنه إن كان متمسكًا به. ستجدين من يغارون منك خصوصًا إن أحسوا أنك أصبحت قريبة من "علوية". لا أريد أن أثبط من همتك لكن...".

قاطعته فى حماس:

"كل هذا لا شيء مقارنة بما واجهته".

نظر إليها فى تساؤل فاستطردت بسرعة:

"ربما أبالغ.. ما أريد أن أقوله هو أننى مستعدة لمواجهتها. لكن لماذا تبحث عن ممثلة تقوم بدورها؟ أليس هذا أمرًا غريبًا من نجمة معروفة مثلها"؟

"والله يا بنتى خطر لى الخاطر نفسه. لا أعرف ما يجعلها تفعل هذا، ولم أرد أن أسألها. "علوية" فنانة متميزة لكنها غريبة الأطوار أحيانًا. ربما الفنانون هكذا".

ظلت صامتة. لو علم ما يدور فى حياتها!!

نظر إليها كأنه قرأ أفكارها فأحست بالاضطراب. انحنت لكى تشد على جوربها سقط جزء منه داخل الحذاء. سألها كأنه يوجه إليها سؤالاً عابرًا:

"عزيز المغربي". هل نجح فى الامتحان"؟

رفعت رأسها لتجيب عليه:

"نعم نجح، وبامتياز".

"مثلك"؟

"ليس تمامًا. أنا الأولى وهو الرابع".

"طبيعي. لم يكن متفرغًا للدراسة مثلك. كنت أتوقع له ما هو أسوأ من هذا بكثير".

همس صوت فى أعماقها: "لماذا يهتم بـ"عزيز"؟ ربما سمع شيئًا عنهما. إنها حرة. ليس وصيًا على حياتها. كلهم يبحثون عن ثغرة ينفذون منها. حتى هذا الرجل العجوز الطيب. ربما يبحث عن بديلة لزوجته صانعة الحلويات الممسوحة. ترى ما علاقته بـ"علوية رستم"؟

دق جرس الباب فقام بسرعة وعبر الصالة ليفتحه. لمحت "علوية رستم" وهى تتوقف على العتبة كأنها تستعد للدخول إلى المسرح. لماذا أصبحت شكاكة؟ إنها امرأة غير عادية. قامت من جلستها وأسلمت نفسها لحضن "علوية" التى قالت:

"صاحبة العينين الجميلتين. أراك اليوم مشرقة وسأحاول ألا أحسدك".

ضحك الدكتور "السماع":

"طبعًا مشرقة. نجحت بامتياز فى المعهد، وطلعت الأولى".

أمسكت بيديها وحضنتها مرة ثانية.

"مبروك.. أنا سعيدة جدًا بهذا الخبر. سنحتفل طبعًا"؟

"طبعًا.. اقتربى منا يا "نور"، وأنت يا "علوية" اجلسى على الكنبة".

قالت "علوية":

"أنت يا دكتور "مصطفى" رجل بخيل. لماذا لم تخبرنى قبل أن آتى بنجاحها كنت أحضرت معى هدية"؟

احتج قائلاً:

"أنا بخيل. زوجتى "سعاد" تتهمنى بالإسراف".

لمعت عيناها:

"إنها تشك فى أنك تصرف خارج البيت".

قال:

"حرام عليك. أنت تعرفيننى منذ سنين".

"ربما لكن تحت السواهى دواهي". ترددت ضحكاتها عالية رنانة. قالت:

"سأعترف بالحقيقة يا "نور". أبلغنى الدكتور "مصطفى" بخبر نجاحك، لكنه لم يرد أن يحرجنى أمامك. اليوم كنت مشغولة وهبطت من البيت بسرعة فنسيت موضوع الهدية. سأعوضها لك فى فرصة أخرى. أنا امرأة مدللة. تعودت على تلقى الهدايا بدلاً من إعطائها".

قالت:

"الهدية لا تهمني.. ما يهمنى أننا تعارفنا وهذا يكفيني".

"يا "نور" ليست المسألة مجرد تعارف. ألم يُخبرك الدكتور "مصطفى" برغبتى فى أن تنضمى إلى فرقتنا. عندك صفات يمكن أن تجعلك متميزة، فأنت قادرة على تقمص شخصية غير شخصيتك، وأن تعبرى عن النفس الجياشة التى تخفينها من خلالها". قالتها وهى تنظر فى عينيها.

لم تعلق، فأسرع الدكتور "السماع" بالتدخل:

"لم أفاتحها فى شيء. فضلت أن أنتظر حتى تحضري أنت لتعرضى عليها ما قلتِه لي".

حملقت "علوية" فى صورة "بيرم التونسي" كأنها سرحت. سمعوا صوتًا كأزيز عجلات تجتاز الصالة، وظهرت زوجته "سعاد" فى فتحة الباب وهى تدفع بمنضدة متحركة وضعت عليها أدوات الشاى، وأطباقًا من الحلوى فوقف ليساعدها. قال:

"ستُتاح لكم فرصة تذوق أجمل حلويات تُصنع فى "مصر".

أشرق وجه زوجته وانتفض البريق فى عينيها. قالت "علوية":

"يا عمتي. أكاد لا أطيق الانتظار لتذوق ما يوجد فى هذه الأطباق، لكن اسمحى لى الأول أن أقبلك. لم نلتق منذ شهور".

قامت واحتضنتها. "اجلسي.. اجلسي، قبل أن نتناول ما صنعته لنا. نريد أن نأخذ رأيك فى موضوع مهم".

جلست السيدة "سعاد"، وانشغل الدكتور "السماع" بصب الشاى فى الأقداح. استطردت "علوية":

"جئت اليوم للاحتفال بالنجاح الذى أحرزته "نور". وأيضًا لكى أعرض عليها العمل معى فى الفرقة. فما رأيك فى هذا الاقتراح"؟

قال الدكتور "السماع":

"فلنسمع رأى صاحبة الشأن الأول".

ألقت إليه "علوية" بنظرة فيها ضيق:

"لا... بعد إذن "نور".. أريد أن أسمع رأى عمتى الأول. إنها بعيدة عن الموضوع وستعبر عن وجهة نظرها بحياد".

بدا على السيدة "سعاد" علامات الحيرة ثم قالت فجأة:

"ليتنى وجدت فرصة لكى أفعل بحياتى غير ما فعلت. أشعر أنها تبددت".

ساد صمت طويل. قام الدكتور "السماع" وأمسك بطبق من الحلويات دار به عليهم فأخذت واحدة منها بحركة آلية ووضعتها إلى جوار قدح الشاى. قالت "علوية":

"اجلس يا دكتور. نريد أن نسمع رأيها قبل أن نأكل من حلوياتها". فأعاد الطبق إلى المنضدة وجلس. قالت السيدة "سعاد" بصوت واضح خرج عن همسه المعتاد:

"رأيى أن توافق "نور". إنها فرصة ربما لن تتكرر. يجب أن تنتهز كل فرصة تتاح لها لكى تحيا حياتها. هذه نصيحة امراة لم تع هذا".

ساد الصمت من جديد. مدت "علوية" يدها والتقطت قطعة من الكنافة بأصابعها وأخذت تأكل منها فتبعها الآخرون. قامت السيدة "سعاد" وأعدت طبقًا بمختلف أنواع الحلويات التى أحضرتها وقدمته لها قائلة:

"أنت المحتفى بك يا "نور"، فخذى هذا الطبق. سأعد لك تشكيلة حتى تحمليها معك إلى البيت. ربنا يوفقك ويسهل لك خطواتك".

لمحت الدموع تلمع فى عينيها. حملقت فى وجهها بنظرة أرادت بها أن تعبر عن امتنانها. قالت:

"أشكرك".

صفقت "علوية" ثم قالت:

"إنهـا فعـلاً أجمـل حلويـات ذقتهـا فى "مصر". لـك حـق يـا دكتـور "مصطفى". لكن إذا أكلت منها كل ما أريـده لـن أصلـح للـدور الـذى أعـد نفسى لـه. لنعـد إلى موضـوعنا يـا "نـور" فـنحن ننتظـر رأيـك؟ عـبرى عنـه بصراحة، فلن أغضب منك إن قلـت "لا"؛ إنهـا حياتـك. ربمـا تريـدين مهلـة للتفكير".

"مهلة للتفكير؟! كنت أحلـم بـأن أنضـم لفرقتـك، وأعمـل معـك منـذ الليلة التى رأيتك تمثلين دور "رابعة" فى مسرحية "رقصة المـوت الجميـل" لم أكن أتصور أن هذا الحلم يُمكن أن يتحقق".

***

الفصل الرابع عشر

كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءً عندما دفعت باب محل "الكوافير سوسو" ودخلت. كان منهمكًا فى تمشيط شعر امرأة وبتجفيفه بـ"السيشوار". ألقى ناحيتها بابتسامة كشفت عن صف من الأسنان الصفراء الصغيرة، ثم عاد إلى ما كان يفعله، فتوجهت إلى مقعد بعيد فى ركن المحل، وجلست. درات بعينيها على الزجاجات والأوعية الملونة، المرصوصة على الرفوف، على رأسه الكبير انسدل شعره الطويل حتى الكتفين كان يميل به ليهمس فى أذن المرأة البدينة المحشورة فى مقعدها، على الصبى الأسمر النحيل أمسك بمنشفة بين يديه ووقف خلفه ينتظر، ثم أخرجت كتابًا من حقيبتها، وأخذت تقرأ فيه.

انصرفت المرأة بعد أن انتهى "سوسو" من مهمته، فناداها: "اتفضلى يا ست "نور"، فقامت وجلست مكانها. تأملها لحظة طويلة فى المرآة ثم قال:

"يا سلام على الحلوة دى. دانتى بتحلوى يوم عن يوم. لكن إيه اللى جابك فى الساعة دى؟ مش ده وقت الشغل"؟

"النهاردة الجمعة، وكمان خليك إنت فى شغلك يا "سوسو" وما تسألنيش".

"إنتى زى الدكاترة يعني، ما بتشتغليش خميس وجمعة. ما هو شغلك ده علاج للرجاله المساكين اللى نسوانهم مش عارفين يبسطوهم. الحمد لله أنا مستريح من الناحية دى. وبعدين إزاى تقوليلى إنه ده مش شغلي. هو إنت ناسية ولا إيه"؟

"مش عايزة غلبة يا "سوسو". اعملّى شعرى وإنت ساكت وخلص. أنا تعبانة وعايزة أروح أنام".

"عايزة تقصي"؟

"لا .. مش عايزة أقص".

"ليه يا "نور". إنتى زعلانة منى ولاّ إيه؟ أنا عايز أعملك قصة اللى يشوفوها حيتجننوا عليك. الناس أصلها ما بتعرفش أهمية الشعر... النبى "محمد" عليه الصلاة والسلام كان هارش الحته دى. عشان كدا لبس نسوانه حجاب عشان ما حدش من رجالته يطمع فيهم".

ضحكت:

"والله إنت نمرة بصحيح. لكن عايز تعملى قصة جديدة ليه؟ مادى حلوة".

"يعنى ما نتيش عارفة ليه؟ عشان اليومين دول اترقيتي. بدل ما تبقى لا مؤاخذة "شرموطة" بقيتى ممثلة أد الدنيا".

انتفضت فى المقعد كأنها ستقفز خارجه. وضع يديه على كتفيها ليحول دون قيامها وقال:

"اهدى يا "نور" اهدى. أنا ما قلتش حاجة مش صحيح، وإنت قلتيلى مرة إن الحقيقة ما بتزعلكيش. فاكرة ولا لأ؟ وكمان انتى عارفة أنا بأعزك

أد إيه. دا إنت أعز زبونة عندى. مش عشان حاجة. عشان اللى زينا برضة بيعرفوا يقدروا الناس وسط القرف اللى هم فيه. أنا لو كان المحل بيأكلنى عيش ما كنتش دخلت فى الشغلانات الوسخة اللى دخلت فيها. يمكن ربنا ياخد بيدك وتسيبيها. يا ريت تاخدينى معاك فى التمثيل عشان أفلت منها أنا كمان. بس خدى بالك مي اللى اسمها "سامية" دى. من ساعة ما عرفت إنك دخلت فى التمثيل وهى بتفكر تستنفع من الحكاية دى إزاى، وفى نفس الوقت خايفة لتفلتى من بين إيديها".

تململت فى جلستها ثم سألته:

"وإنتو عرفتوا منين إن أنا حاشتغل فى التمثيل"؟

"هو فيه حاجة بتستخبى فى البلد دى؟ كله سايب على بعضه. اتنشر خبر فى جرنان "الوطنى الحر"، ومعاه صورة لك ولـ"علوية رستم"".

"صورة؟ جابوها منين"؟

"أنا عارف"؟، صمت لحظة وهو يقص من خصلة فى شعرها، "حقولك حاجة بس أوعى توصلى اللى حقولهولك لـ"سامية"، ولاّ لغيرها. هى مش لوحدها. دى داخلة فى عصابة كبيرة واصلة لحد فوق خالص. معاهم بوليس، ومحامين، وصحفيين وكل حاجة. وفضايح الصحافة بتجيب فلوس كتير. الناس اللى بتوصل لفوق، واللى معاهم فلوس بتدفع بسهولة لما تقع، وما بيقعش إلا الشاطر. السكك مفتوحالهم فيروحوا داخلين فيها".

ربت على شعرها بلمسة خفيفة ومر فيه بالمشط.

" كده كويس"؟

هزت رأسها فاستطرد:

"ما عرفش هى عايزة ترتب إيه بس خدى بالك. أصل الممثلة لما تشتهر بيبقى سعرها غالي، والرجالة يريلوا عليها. العرب خصوصًا بتوع

البترول يعني. بيسموها نفط مش كده؟ بس لما تشتهرى ابقى افتكرى "سوسو". مانا برضة خدمتك واللا إيه؟ أصل أنا بيعتبرونى بيساريا أتاكل بسهولة، وأخدمهم ببلاش عشان خايف منهم".

أخذت الأفكار تطن فى رأسها. عندما انضمت لفرقة التمثيل أحست بالأمل، بأن حياتها يمكن أن تتغير، وها هم يتربصون بها. زحف عليها إحساس بالخوف فبذلت جهدًا حتى تفكر بهدوء. قالت:

"يا "سوسو".. إنت صاحبى مش كده"؟

"أيوه طبعًا.. مانتى عارفة".

"طب لو سمعت حاجة حتقولي"؟

نظر حوله كأنه يخشى أن يلتقط أحد ما يقولانه. ابتسم فبدا كالفأر عندما يظهر أسنانه:

"هتدفعى كام"؟

فكرت بسرعة. إن وافقت سيبتزها بالحق وبالباطل. قالت:

"ولا مليم. أنا كنت فاكرة إنك أحسن من كده. اللى يحصل يحصل. مش حيخوفوني". خطر فى بالها أن تقول مستعدة أكشفهم حتى إذا رحت أنا فى داهية، ثم تراجعت. إذا أبلغ "سامية" بكلامها ستأخذ احتياطها. قالت:

"هات الكتالوج وورينى القصة اللى عايز تعملها لي. لازم شوفتها فى مجلة ولا حاجة".

ذهب إلى المنضدة المنتصبة أمام مقاعد الانتظار. التقط واحدة من المجلات الموضوعة فوقها، وأخذ يقلب فيها إلى أن وجد الصورة التى يبحث عنها. عاد وأشار إليها بإصبع أطال ظفره، وصبغه بلون وردى فيه لمعة. قال:

"دى".

تأملتها قبل أن تقول:

"لا حلوة.. إنت كوافير بصحيح".

"يا ريتنى ما كنت كوافير. الظاهر اتولدت باحب الشعر. أكتر حاجة بتثيرنى لمسة الشعر قبل ما يحضنى حبيبي".

قالت:

"كفاية بقى. أنا قرفت من كلامك. اشتغل دلوقت وإنت ساكت خالص..".

مال عليها وأمسك بالمقص. تردد صوته المعدنى المنتظم قرب أذنها فسرحت. "متى تُنتزع من هذا المستنقع الذى أصبحت مغروسة فيه؟ الاغتصاب كان غصبًا عنها، إنما هذا...".

عندما عادت إلى البيت كانت "أم هاشم" مستيقظة تنتظرها. قالت:

"يا ماما.. إنتى لسه صاحية"؟

"ما جاليش نوم يا بنتي. قلت لنفسى حترجعى تعبانة من البروفات فى المسرح. أسخن لك كباية لبن أو أعملك لجمة صغيرة تاكليها جبل ما تنامي"؟

قالت:

"لا .. يا ماما ما ليش نفس".

"ليه يا بنتى إنت بتتعبى كتير"؟

"ما اعرفش ليه. أهه ساعات بيحصلى كده، وساعات بتبجى نفسى مفتوحة. ما تشغليش بالك. لكن جوليلى الحج.. إنت ما نمتيش ليه؟ دا الساعة حداشر وربع. مش معجول اللى يسهرك كباية لبن تسخنيهالي".

"أيوه .. أمال إيه؟ هو أنا عندى حد غيرك فى الدنيا دى"؟

"لا يا ماما .. أنا عارفاك. فيه حاجة تانية".

"أبدًا .. مفيش حاجة.. أنا بس افتكرت لما جيت أنام إنه فيه واحد ضرب تلفون وسأل عنك. جال عايز ياخد منك ميعاد. ودى أول مرة راجل يتصل علاطول بدل ما يفوت عن طريج "سامية". هى اللى دايمًا بتتفج على المواعيد لكن هو جاللى إن هى اللى بعتاه، ومرضيش يسيب اسمه. جال حيتصل تانى وجفل. فجلت أستناك لأحسن تكون حاجة مهمة إنت مستنياها".

ظلت صامتة. قرأت القلق يطل من وجه "أم هاشم". أخذت تدور حول الصالة بحركة من عينيها فيها ذبذبة. فقالت:

"تلاجى "سامية" كانت عايزة تبعتلى حد يهمها وما لحجتش تكلمني. صدجينى ما تشليش فى بالك".

"أصل أنا باخاف عليك يا بنتي. الحمد لله على حكاية المرسح دى. ربنا ياخد بيدك ويخلصك من ولاد الحرام. هه حاجوم أنام بجى".

قامت "أم هاشم" وتركتها فدخلت إلى غرفتها. خلعت ملابسها وهى تفكر فيما قالته. علقتها فى الدولاب وارتدت قميصًا للنوم، ثم عادت إلى الدولاب وفتحته من جديد. بحثت بيدها فى ركن الرف السفلى تحت جلاليبها المعلقة وأخرجت زجاجة من "البراندى"، وكوبًا أزرق اللون أعطتهما لها "سامية" عندما شكت لها من زبون. قالت:

"السخام ده بينفع الواحدة مننا عشان ما تحسش بالزبون اللى ريحته وحشة، أو اللى كرشه كبير فما يعرفش يوصل لها، يبقى زى الثور يشحر ويفضل البتاع بتاعه متعلق فى الهوا لحد ما تمسكيه إنت بإيدك عشان يعشر".

صبت من الزجاجة كمية فى الكوب وابتلعت أغلبه وهى واقفة، ثم جلست على المقعد وأخذت ترتشف بقايا البراندى والدموع تسقط من عينيها على قميصها.

***

الفصل الخامس عشر

تردد فى أذنيها صوت أجش يصرخ: "ما كانش حد راضى بيكى. أنا نتعتك من الذل اللى كنتى عايشة فيه ودلوقتى جاية تسألينى باودى فلوسى فين؟ روحى فى ستين داهية. إن ما كانش عاجبك أرجعك للزريبة بتاعة أبوك، يا بنت الكلب، يااللى ما يطمرش فيك حاجة". ثم سمعت طرقعة باب شقة الجيران يغلق بعنف.

انتزعتها أصوات العراك من محاولاتها لحفظ كلمات الدور. وضعت الملف الأزرق على المنضدة وقامت. اجتازت الصالة إلى المطبخ لتصنع قدحًا من القهوة. تشعر أن قلبها ثقيل. أهو زعيق الجار، أم الاتصال التليفونى للرجل المجهول أخبرتها به "أم هاشم" عندما عادت بالأمس من عند "الكوافير"؟

صبت الماء فى كنكة صغيرة من النحاس وأضافت ملعقة من البن، وقليلاً من السكر عليه. أوقدت "السبرتاية" التى حملتها معها "أم هاشم" من البلدة، لكن قبل أن تضعها على الشعلة رن جرس التليفون. كانت "أم هاشم" تختطف ساعة من النوم فى حجرتها فأسرعت نحوه ورفعت السماعة. سمعت صوت رجل يقول:

"مساء الخير. عايز أكلم "نور".

تملكها شعور بالضيق. سألت:

"إنت مين"؟

صمت لحظة قبل أن يرد:

"أنا "نبيل". "سامية" ادتنى نمرة تليفونك".

"نبيل" مين"؟

"يعنى عندها "نبيل" تاني"؟

"أيوه عندها".

ضحك ضحكة قصيرة ناعمة ذكرتها بقط احتفظت به لبعض الوقت ثم تخلصت منه. كان يخربشها عندما يعود من الخارج دون أن يهتدى إلى قطة أنثى يُفرغ فيها همه.

"اسمى "نبيل عطا الله". وأنا مساعد وكيل المجلس الشعبى التشريعي".

قالت:

"أنا.. "نور عسران".

قال:

"أهلاً وسهلاً. الست "سامية" كلمتنى عنك كتير. دى معجبة بيكى جدًّا. وبتقول إن قدامك مستقبل كبير فى الشغلانة اللى إنت بتشتغلى فيها".

"آنى شغلانة"؟

"يعنى ما انتيش عارفة يا ست "نور"؟!

لم تعلق.. انتظر قليلاً ثم استطرد:

"أنا عايزك فى مسألة تهمنا إحنا الاتنين. قابلينى بكره بالليل الساعة سبعة ونص".

"سامية" ما كلمتنيش ليه"؟

تكررت ضحكته الخافتة فأحست بقشعريرة تخترق جسدها.

"سامية" حاولت تلعب بديلها. عشان كده أنا اللى حتعامل معاكى من هنا ورايح. عايزك تستينى بكره فى "اللاونج" بتاع فندق "شهر زاد" الساعة سابعة ونص. كده تقدرى تلحقى شغلك الساعة تسعة. حاتعرفينى بسهولة. أنا طويل، أصلى كنت لعيب باسكيت دولى فى يوم من الأيام".

توقف لحظة كأنه يتذكر أمجاده.

"حاحط وردة حمرا فى عروة الجاكتة، وأشيل جرنان "الوطنى الحر". تكونى فى الميعاد قبلها بعشر دقايق. سامعة"؟

دارت الحجرة حولها فأمسكت بظهر المقعد إلى أن استعادت توازنها. خرجت "أم هاشم" من غرفتها. أحست بعينيها مسمرتين عليها كأنها أدركت أن شيئًا غير عادى يحدث. تملكها شعور بالذل. قالت بصوت بدا لها أنه صوت امرأة أخرى:

"أيوه سامعة".

قال:

"أيوه كده.. أهه ابتدينا نتفاهم، وحانتفاهم أكتر إذا كنتى حتبقى عاقلة. بكرا الساعة سبعة ونص". وأغلق الخط.

ظلت واقفة ممسكة بالسماعة فى يدها كأنها لا تعرف ماذا تفعل بها، ثم أعادتها إلى مكانها. عادت إلى المطبخ. أطفأت "السبرتاية" وأفرغت الكنكة من محتوياتها فى الحوض. تتبعت السائل البنى اللون ينتشر فوق الصينى الأبيض فى خطوط متعرجة رفيعة، وفى الشقوق التى ترسب فيها

وسخ الغسيل. علقت الكنكة على المسمار البارز من الحائط قرب الحوض ثم خرجت وعبرت الصالة إلى غرفتها. قبل أن تُغلق الباب وراءها استدارت وقالت "لأم هاشم":

"يا ماما أنا تعبانة شوية الليلة.. لما ييجى حد منهم اعتذريله، وخدى اسمه. جوليله حاخلى "سامية" تتصل بيه عشان تتفج معاه على ميعاد تاني".

رقدت فى سريرها. تواترت عليها صور من حياتها. لكنها فى لحظة من اللحظات سقطت فى النوم. رأت نفسها جالسة على دكة فى حديقة أشجارها تحمل زهورًا حمراء وبنفسجية اللون. كانت ترتدى ملابس بيضاء. فجأة انقض عليها طائر كبير دفن منقاره المقوس فى لحم ثديها فخرجت منه أشياء تشبه طحالب البحر ارتفعت منها رائحة عفنة. استيقظت وقد سيطر عليها شعور بالغثيان. أضاءت النور بسرعة، ثم انطلقت خارجة من الغرفة إلى الحمام وتقيأت فى حوض المرحاض سائلاً مرًّا لونه أصفر.

عندما جاء الصباح شربت الشاى الذى أعدته لها "أم هاشم". رفضت أن تأكل شيئًا، وبعدها انسحبت إلى غرفتها ولم تخرج منها إلا قرب الساعة السادسة والنصف مساءً. كانت ترتدى ملابس الخروج، سترة من قماش "الفايلة" قرمزية اللون ومن تحتها "بلوزة" برقبة مغلقة، وشالاً أبيض من الحرير، وجوبة طويلة سوداء.. لم تضع على وجهها أيه مساحيق حتى الكحل الذى اعتادت وضع القليل منه على جفونها. تأملت نفسها فى المرآة. لمحت عينيها مثل قطعتين من الحجر الأسود المصقول تطلان إليها من وجهها زحف الشحوب فى ثنايا سماره. أحست بيديها باردتين كالثلج فابتلعت جرعتين من زجاجة "البراندى" دون أن تصبهما فى الكوب، وأعادتها إلى مكانها فى ركن الدولاب أسفل ملابسها، ثم خرجت إلى الصالة. رأتها "أم هاشم" وهى تستعد للخروج، فعلقت قائلة:

"يا حبيبتى يا "نور".. أنا عمرى ما شفتك أجمل من كده. لكن وشك اتغير ليه.. وعينيكى.."؟

لم ترد، فسألتها:

"هو إنتى رايحة فين"؟

"رايحة أجابل واحد عشان الشغل يا ماما".

قالت:

"ليه هو فيه شغل حتعمليه غير الشغل بتاع دلوكيتي"؟

"حاجلولك على كل حاجة لما أرجع يا ماما".

"طيب خدى بالك من نفسك يا بنتي. أصل ولاد الحرام كتروا اليومين دول. حاستناكى لحد ما ترجعى عشان أعرف منك إيه اللى حصل. ربنا معاكى".

قبل أن تخرج من باب الشقة استدارت. لمحت الشظايا السوداء اللون تسبح فى عينيها، فقالت:

"ما تقلقيش عليّ. أنا عارفة أنا باعمل إيه. تصبحى على خير".

دلفت من باب العمارة وسارت على قدميها حتى ميدان "باب الخلق"، وهى تبحث عن سيارة للأجرة. عند ناصية الشارع لمحت سيارة قادمة فأشارت إليها. مالت على السائق وقالت:

"فندق "شهرزاد" يا اسطى"، فتأملها مليًا قبل أن يهز رأسه ويقول: "اركبي"، ففتحت الباب وجلست على المقعد الخلفي. لاحظت أنه أخذ يرمقها بعينيه الضيقتين فى المرآة كلما توقفت السيارة عند إشارة للمرور. بعد أن قاد السيارة مسافة سألها:

"هو إنتى بتروحى فندق "شهرزاد" ده كتير"؟

ظلت صامتة كأنها لم تسمعه، فانشغل بوضع شريط فى جهاز الكاسيت يردد صوت "فايزة أحمد" وهى تغنى "يا امّه القمر على الباب"، وبعد قليل خرج عن صمته مرة أخرى وسألها:

"بتحبى الأغنية دى يا قمر"؟

تجاهلت السؤال وأخذت تحملق من النافذة فى وجوه الناس بدت لها كالدمى التى خرجت تستكشف الليل.

أوصلها حتى باب الفندق فأعطته ورقة نقدية بعشرة جنيهات وهبطت من السيارة. قلب الورقة بين يديه وهو ينظر إليها. رفع كتفيه بحركة توحى بالاستخفاف، ثم قال:

"جايه فندق "شهرزاد" وبتدفعى عشره جنيه"! وانطلق بسيارته فى قفزة جعلت إطارات السيارة تصفر على أسفلت الشارع. نظرت إلى ساعتها وهى تدخل من الباب. كانت تشير إلى السابعة والربع. اختارت مقعدًا فى الركن البعيد للصالة بحيث تستطيع أن تلتقط كل من يدخل إليها. لم يكن فيها سوى ثلاثة من العرب جلسوا على أريكتين. فحصوها من أعلى إلى أسفل ثم عادوا إلى الحملقة فى شيء لفت نظرهم.

مرت الدقائق بطيئة. كانت ساعتها تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق عندما لمحت رجلاً طويل القامة يدخل من باب الفندق. دار بعينيه حول الصالة ببطء فأتاح لها الفرصة لكى تفحصه. كان وجهه بيضاوى الشكل ورأسه مغطى بشعر أسود لامع يهبط على الجانبين فى سالفين طويلين. كانت بشرته بيضاء يشوبها احمرار عند الخدين، وفمه العريض يعلوه شارب يتدلى قرب ركنيه، وكان يرتدى سترة من الصوف فاتحة اللون تناثرت عليها نقاط مستديرة صغيرة الحجم، داكنة اللون، وبنطالاً كحليًا غامقًا. تحت البنطال برز الطرف المدبب لحذائه فخطر فى بالها أنه يشبه أحد ضباط الأمن الذين كانوا يتناوبون على المعهد. لاحظت الوردة الحمراء التى

رشقها فى عروة السترة والصحيفة التى حرص على إظهارها بحيث تستطيع أن تقرأ كلمتى "الوطنى الحر" مطبوعتين بلون أخضر فاقع.

توجه إلى المكان الذى كانت تجلس فيه وخاطبها قائلاً:

"مساء الخير يا "نور"، ثم جلس على مقعد إلى جوارها.

ردت:

"مساء الخير".

"سامية" بتسلم عليكى وكان نفسها تشوفك لكن هى اضطرت تسافر "طنطا" النهارده".

لم ترد، فاستطرد:

"وأنتى حتشتغلى معايا دلوقت. وحخليكى تطلعى فوق قوى وتسيبى الحوَش اللى كانوا حواليكي. حتنتقلى نقلة ماكونتيش تحلمى بيها، نقلة فيها فلوس بصحيح، وشقة وعربية تاخدك، وتجيبك وتوديك مطرح مانتى عايزة، وفساتين من بره. إنت بت حلوة وزباينك حيبقوا ناس محترمين مش شحاتين. أنا حادخلك فى المجتمع "الهاى". كنت عضو مجلس الشعب التشريعى لمدة سنين لكن بتوع الدايرة قرفونى فسبتهم عشان اتفرغ لمصالحي... حادخلك "نادى الصيد" و"الروتارى" وأنيمك فى أحضان الأمرا. تعرفى الروتارى"؟

قالت:

"لا ما عرفوش".

ضحك ضحكة القط المميزة، وأخرج من جيبه سبحة فضية لها شراشيب أخذ يدير حباتها بين أصابعه. قال:

"طبعًا حتعرفيه منين، من بنت القحبة "سامية" واللا الخوَّل "سوسو".. بكرا تعرفيه معايا إذا مشيتى زى ما حاقولك. لكن الأول عايز

أبعتك لواحدة عندها بوتيك فى "المهندسين" تلبسك بدل الهلاهيل اللى إنتى لابساها دى، وتوديكى عند "كوافير" طليانى فتح جديد. ولازم نجيبلك شقة فى حته راقية، "الزمالك" كويسة، أهى جنب المسارح. فيه شقة فاضية أنا شفتها عند طرف اللسان تكشفى منها النيل من كل ناحية. ممكن أبعت حد معاكى بكره عشان تشوفيها. إيه رأيك"؟

قالت:

"قلتلى اسمك إيه"؟

احمر وجهه وهو يقول:

"اسمى إيه؟ كده على طول؟! مفروض تقوليلى حضرتك اسمك إيه. مانا قلتلك فى التليفون".

قالت:

"حضرتك اسمك إيه"؟

حملق فى وجهها بغيظ. رأت عينيه صفراء اللون مسطحة كأنه لا يوجد وراءهما شيء. قال:

"أنا اسمى "نبيل عطا الله".. ولما تتكلمى معايا تقوليلى أستاذ "نبيل"، أو "نبيل بيه".. بكره تتعلمى الأصول، وهى دى الأصول، رغم إن أنا طول عمرى، قريب من الناس وما بأحبش الفشخرة. لكن لما العلاقة بينا تبقى قريبة حأخليكى تاخدى على شوية.. فهمانى"؟

قالت:

"فاهماك. لكن يا أستاذ "نبيل بيه". أنا جيتلك فى الميعاد عشان أقولك اللى أنا ناوية عليه".

استقام فى جلسته. توقفت السبحة عن الدوران بين أصابعه، قال:

"يعنى إيه"؟

"يعنى أنا مش ناوية أكمل فى الشغلانة دى معاك ولا مع غيرك".

زحفت نقاط سوداء صغيرة إلى مقلتيه فبدا لها وكأنها صعدت من السترة التى كان يرتديها. ارتعشت عضلة فى خده. قال:

"إنتى عارفة إنتى بتقولى إيه؟ واللى ممكن يحصلك لما تقولى اللى إنتى قلتيه"؟

قالت:

"عارفة.. شوية مية نار يرشها واحد من عصابتك على وشي، أو سكينة حد يغرزها فى ضهرى، أو عربية تدوسني.. مش كده"؟

وقعت السبحة من يده واستقرت قرب حذائه الأسود اللامع. ظل صامتًا يحملق فى وجهها كأنه يحاول أن يستوعب معنى كلامها. قالت: "عن إذنك بقى يا أستاذ "نبيل". وقبل أن يتحرك أو ينطق بشيء قامت وتركته حيث كان يجلس. خرجت من باب الفندق فاقترب منها رجل ملتحٍ ارتدى على رأسه طاقية مخرمة. همس: "تاكسي"؟

قالت:

"لا شكرًا" دون أن تلتفت إليه. عبرت الشارع وسارت إلى جوار النيل. ولأول مرة منذ سنين أحست أن هواءًا منعشًا أصبح يدخل إلى صدرها.

***

الفصل السادس عشر

مدت ذراعها أمامها تتحسس طريقها، ثم خرجت من باب البيت إلى الحوش. كانت ترتدى جلبابًا من القطن، برتقالى اللون. حول رأسها ربطت منديلاً من القماش نفسه لمع حول حوافه الترتر الأسود. أسندت يدها على ظهر الدكة الخشبية الموضوعة قرب الباب، وجلست.

على مسافة منها وقفت "علوية رستم" بقوامها الفارع الملفوف فى ثوب داكن يُظهر خطوطه الأنثوية مع حركة جسمها. إلى جوارها انتصبت "طلمبة" مياه، وعلى الأرض عند قدميها وضع مقطف كبير من الخوص. انحنت فوقه، وملأت كفيها بحبات القمح. رفعتهما إلى أعلى كأنها تقدمها قربانًا للشمس، ثم تركتها تتسرب من بين أصابع يديها.

مالت برأسها ناحيتها كأنها تسترق السمع إلى الحفيف الخشن للحبات تسقط فى المقطف، وفى تلك اللحظة فتحت بوابة الحوش ودخل شاب. كان يرتدى قميصًا يسقط واسعًا حول خصره، وبنطالاً من قماش "الجينز". من أعلى كتفه تدلى حزام علق فيه كيسًا من الجلد يحتوى على عود.

تردد أزيز البوابة فى الصمت. ظلتا ساكنتين كأن الدنيا توقفت فى لحظة سيحدث فيها شيء، ثم انكسر الجمود، وندت من كل منهما حركة بسيطة، وفجأة التفتت إليها "علوية رستم" وصرخت:

"ما هذا يا "نور"؟! لا شيء فى وجهك، أو فى حركة جسمك يعبر عن الدور الذى تقومين به"، ثم هدأ صوتها قليلاً وهى تستطرد: "أنسيتِ. أنت فتاة فاقدة البصر، مفرطة الحساسية، وقعت فى حب شاب من البلدة. كانت تسمعه يعزف على العود فى المنزل القريب منها. فى هذه اللحظة هو قادم من المدينة. أختها الأكبر منها وقعت هى أيضًا فى حبه. سمعت أنه سيعود فى هذا الصباح ليقضى إجازته فى البلدة، فقررت أن تقوم بغسل الغلة فى الحوش حتى تكون أول من يجدها فى انتظاره. أما أنت يا "نور" فلم يخبرك أحد بقدومه. لكن أنت، الفتاة المحرومة من البصر تشعرين، فاستطعت أن تستشفى ما يدور، من الهمسات، من الحركة المتوترة للأجسام، ومن النبرات المتوترة فى الكلام، من أشياء تكاد لا تحس إلا مِن قِبل مَنْ لها إحساس مفرط بالأشياء، القادرة أكثر من غيرها على الحب. أدركت أن أختك الأكبر منك تحبه.. أنها تُصر على غسل الغلة فى هذا الوقت حتى تنتظره لحظة دخوله إلى البيت. سمعت أزيز البوابة. أحسستِ أنه هو الذى جاء. مع ذلك لم أر على وجهك الفرحة التى تصارعين لإخفائها. لم أر الرفرفة البسيطة لجفونك فوق عينيك، أو يديك تمتدان بحركة تكاد لا تُرى. لم أر الإقدام والتراجع فى جسمك الجالس على الدكة عند الباب، أو رأسك وهى تميل لتلتقط خطواته. لم أر الارتعاشة فى أنفك عندما جاءتك رائحته وهو يدخل إلى الحوش. لم أر أى شيء من كل هذا". علا صوتها من جديد وهى تقول: "وتريدين أن تسمى ما تقومين به

تمثيلاً؟! اتركى الخشبة الآن حالاً ولا تعودى إلا عندما تستوعبين ما قلته، وتتدربين عليه عشرات المرات. وإن لم تفعلى لا أريد أن أراك بعد ذلك".

خطا الشاب خطوتين على المسرح ليقترب منها ثم قال:

"يا "علوية". هذه قسوة زادت عن حدها. إنها تُحاول، ويجب أن تُعطيها الفرصة. ما زالت فى البداية و...".

قاطعته:

"لا تتدخل أنت يا "أحمد يا عبد الدايم". انتبه أنت لدورك. لست فى حاجة إلى نصائحك. إن أرادت أن تكون ممثلة فإن هذا التراخى لن ينفعها. اتركانى الآن.. أنا تعبت، وأنت يا "نور"...".

لم تنتظر لتسمع بقيّة كلامها. كانت الدموع تنهمر من عينيها. هبطت على السلالم إلى الصالة بخطوات متعثرة. سارت فى الممر بين المقاعد وهى تكاد تعدو. وصلت إلى البوابة وانطلقت منها إلى الشارع وسط الناس. اصطدمت بجسم رجل كان قادمًا على الرصيف فتوقفت. مرت لحظة، ثم سمعت صوتًا يقول:

"يا "نور". مالك؟ ما الذى جرى"؟

التفتت. وجدت "عزيز المغربي" واقفًا أمامها وعلى وجهه علامات الدهشة. قال:

"كدت ألا أعرفك. أين أنت ذاهبة"؟

لم ترد. لمح الدموع فى عينيها. ظل صامتًا يتفرس فى وجهها. نظر إلى ملابسها ثم أمسك بذراعها، وقال:

"هيا بنا نعود إلى المسرح لتغيرى ملابسك"، أخرج منديلاً من جيبه وأخذ يجفف دموعها بلمسات خفيفة فتركته يفعل. شد على ذراعها لتسير فى اتجاه الباب فخلعتها من بين أصابعه بحركة فيها عنف، وقالت:

"اتركنى يا "عزيز".. لن أعود".

"ما الذى جرى يا "نـور"؟ أراكِ فى حالـة غـير عاديـة. مـن أغضبك إلى هذا الحد"؟

قالت:

"اتركنى يا "عزيز"، أريد أن أذهب إلى البيت".

"وبروفات المسرحية"؟!

"قلت لك إننى لن أعود.. لا تلح.. أريد أن أذهب إلى البيت".

رفع كتفيه فى استسلام. صمت لحظة ثم قال:

"سأبحث عن سيارة للأجرة تحملنا إلى بيتك".

"أستطيع أن أبحث أنا عن السيارة.. لا أحتاج إلى أحـد معـي. اذهـب أنت. لا بد أن عندك مشاغلك".

قال:

"صحيح، عندى الآن ما يشغلني". حملق فى وجهها بنظرة فيهـا حنـان ثم أضاف، "أنت".

أحست بقلبها يتوقف فجأة ثم يقفز قفـزة هائلـة قبـل أن يعـود إلى انتظامه.

قال:

"سأبحث عن السيارة". واختفى.

عاد بعد قليل راكبًا سيارة للأجرة إلى جوار السائق. هبط منها بسرعـة ليدور حولها، ويفتح لها الباب. ألقى السائق ناحيتها بنظرة فيها فضول قبـل أن تستقر على المقعد الخلفي. قالت:

"أستطيع أن أعود وحدى يا "عزيز". أعطنى بعض النقود حتـى أدفـع الأجرة وسأعيدها إليك".

قال:

"لا ..". ثم دار حول السيارة من الخلف وجلس إلى جوارها. أحست بالحيرة. كيف سيمكنها التخلص منه قبل أن يصلا إلى العمارة التى تسكن فيها. سألها:

"إلى أين"؟

قالت:

"شارع القلعة"، "محمد على" سابقًا. قريب من "ميدان باب الخلق".

اقترب من السائق وقال:

"باب الخلق" يا اسطى".

عندما وصلا أمام عمارتها ألقى عليها نظرة سريعة قبل أن يهبطا من السيارة. دفع الأجرة ثم قال:

"سأتركك الآن يا "نور". إذا أردت أن أتصل بك ما هى أسهل وسيلة"؟

صمتت لحظة ثم قالت:

"يا "عزيز".. أتريد أن تصعد معي"؟

نظر فى عينيها:

"أريد هذا أكثر من أى شيء آخر".

قالت:

"العمارة قبيحة، و...".

مد يده وأمسك بيدها. قال:

"العمارة قبيحة.. لكن أنت جميلة. هيا بنا نصعد يا "نور".

***

الفصل السابع عشر

تتبعت تيار النيل يجرى هادئًا حول الجزيرة. سألها:

"فيم تفكرين"؟

قالت:

"هذا المكان مريح. كنت فى حاجة لقضاء بعض الوقت معك فيه".

ضحك فى سرور، وقال:

"لا توجد فيه أصوات أو موسيقى عالية، لذلك اخترته".

خطر فى بالها أن ضحكته حلوة. كرهت ضحكات الرجال تعودت فيها إيحاء بمعان قبيحة. لكن لماذا تتعالى عليهم؟ أليست مثلهم؟ لو علم حقيقتها...

مر إلى جوارهما زورق صيادين. أخذ الرجل ينشر الشبكة فى المياه، بينما المرأة تشد على المجدافين ملقية بثقل جسمها إلى الوراء. لمحت ذراعيها النحيلتين، وجلدها الأسمر. أسفل منديلها الملفوف حول رأسها وجه عجوز متغضن. شابة شاخت قبل الأوان. قال:

"الحمام المشوى هنا لذيذ".

انتبهت، والتفتت إليه:

"ليست بى رغبة للأكل. أشرب شاى".

"شاى فقط"؟

"أكل "أم هاشم" لا يُعلى عليه. لماذا رفضت أن تتذوق طعامها عندما عرضته عليك بالأمس"؟

"لم أكن أريد أن تنشغل بإعداد الطعام. كنت أريد أن أتحدث معها، وتوقعت أن أقضى بعض الوقت معك لكنك غبت طويلاً".

"كنت أرتب غرفتى قبل أن أدخلك إليها. فى الأيام الأخيرة انشغلت ولم يكن لدى الوقت لترتيبها، وهكذا أتحت الفرصة لـ"أم هاشم" للتعرف عليك".

"وهل نجحت فى الامتحان"؟

ضحكت:

"بامتياز. قالت عنك إنك إنسان ظريف، و"أم هاشم" لا يُعجبها أحد. لكن أريد أن أسألك. أين كنت طوال الأشهر الماضية؟ بعد أن تخرجنا اختفيت".

"قضيت بعض الوقت مع "محسن شكرى" فى بلدته. إنها قريبة من "رشيد"، وأنا أحب هذه المدينة. بعدها عدت معه إلى "القاهرة". تخرج قبلنا بعدة أشهر، والآن يُعد نفسه للتخصص فى أمراض العيون". توقف لحظة وهو ينظر إليها. "يبدو أنه لا يعجبك".

"لماذا تقول هذا؟ لم ألتق به سوى مرة واحدة منذ سنين، بعد مسرحية "رقصة الموت الجميل". أتتذكر؟ ذهبت معك ومع "أحمد عبد الدايم"، وكان هو ثالثنا لنجلس فى "جروبي".

"مع ذلك أشعر أنه لم يُعجبك".

"كيف عرفت"؟

"إحساس، مجرد إحساس".

"وهل بقيت طوال المدة فى بلدته"؟

"لا.. عدت بعد شهر تقريبًا. كنت فى حاجة إلى إجازة. بعد ذلك انشغلت بمشاكل التعيين فى المعهد، وأمى كانت مريضة فى هذه الفترة".

سرح قليلاً:

"كنت أنا الوحيد الباقى لها فى البيت. لى أخان سافرا إلى الخارج، أحدهما مات فى "أفغانستان"، والآخر يعيش فى "الولايات المتحدة". تزوج أمريكية وانقطع عنا تمامًا".

لم تعلق.. رأت أمها جالسة وحدها فى غرفتها الواسعة، وعلى وجهها الجمود الحزين الذى لم يفارقها بعد أن مات ابنها "إبراهيم". نحّت الصورة من ذهنها. مال على المنضدة فأحست بالدفء العسلى فى عينيه يستقر على وجهها. قال:

"لا أريد أن أستغرق فى الكلام عن نفسي".

"لا.. أكمل.. أنا التى سألتك. لماذا حدثت لك مشاكل فى التعيين"؟

"الأمن .. تدخل الأمن لدى إدارة المعهد. قالوا إن "عزيز المغربي" شيوعى ولا يجوز تعيينه. ذهبت إلى الدكتور "السماع". أخبرنى "أحمد عبد الدايم" أن بينه وبين وزير الداخلية صلة قرابة، أنهما من بلدة اسمها "شبشير الحصة" قرب "طنطا"، وأن أسرة الدكتور "السماع" لها نفوذ انتخابى مهم فى هذه المنطقة، فوافق الرجل. قال لى لا أشاركك أفكارك، لكن أنت حر فيها، وأنا أقدر كفاءتك".

"قلت لى فى يوم من الأيام إنك ستشرح لى معنى كلمة شيوعي".

ضحك:

"عندك ذاكرة قوية، لكن كما قلت لك يومها يصعب شرحها فى جلسة كهذه. عندى كتب يُمكن أن أُعيرها لك. لكن ما أريد أن أقوله هو إننى مؤمن بالعدالة بين البشر دون تفرقة، وبالعمل على تحقيق مجتمع يُحقق هذا مهما كان يتطلب من جهد ومن زمن. لكن أنا لا أنتمى إلى أى تنظيم سرى. أنا أنشط فى العلن".

قالت بنبرة فيها ضيق:

"عندى كتب".

ألقى إليها بنظرة فيها دهشة. ظل صامتًا كأنه فوجئ بردها.

"بعد أن تحدثنا فى ذلك ذهبت إلى سور الأزبكية، ودرت على المكتبات إلى أن اهتديت إلى بعضها. غاظنى أنك لم تستجب لرغبتى فى أن أعرف".

مد يده وأمسك بيدها. قال:

"وأنت أيضًا رفضت يومها أن تشرحى لى لماذ كنت تحملين السكين الذى طعنت به أحد الطلبة لتنقذيني. ألم نتبادل الوعود بأن نوضح هذه المسائل لبعضنا"؟

أحست بالبرودة فى أطرافها. سحبت يدها وأمسكت بالسكين الموضوع على المنضدة قرب طبق من الجبن الرومى أحضره النادل مع زجاجة للبيرة. قالت:

"لا أريد أن أتحدث معك عن هذا الموضوع".

"وليكن. مثلك اعتمدت على نفسى وبحثت عن السبب".

بدا لها كأن قلبها توقف. ظلت جامدة لا تتحرك. سمعته يقول:

"بالأمس نمتِ فى حضني، واليوم أقول لك يا "نور" إننى أحبك، وأطلب منك أن تكونى زوجتي".

حملقت فى وجهه. مدت يدها إليه وأمسكت بيده. قالت:

"بعد كل ما عرفته عني"؟ صمتت لحظة طويلة: "أنا أحبك يا "عزيز". مع ذلك لا أريد أن نتزوج. لكن يجب أن تعرف أنك أنت الرجل الوحيد الذى نمت فى حضنه لأننى أحبه".

قالت هذا ثم بكت.

***

الفصل الثامن عشر

انتهت "أم هاشم" من إعداد مائدة الإفطار، فنادتها. خرجت من غرفتها حاملة حقيبتها الجلدية وضعت فيها أوراق المسرحية. تأملت المائدة رصت عليها براد الشاى غطته بمنشفة حتى يحتفظ بالحرارة، وقدحين من الصينى الأبيض، وسبتًا فيه خبز محمص، وطبقًا كبيرًا يحتوى على الجرجير والخس وحبات من الطماطم، وقطعًا من الخيار والجزر وإلى جواره علبة فيها جبن أبيض، وبرطمان من العسل الأسود. تنهدت فى ارتياح ثم قالت:

"يالله يا "أم هاشم" أنا جيت أهه"، فخرجت من باب المطبخ إلى الصالة مرتدية جلبابها الواسع الوردى اللون، ومنديلاً برزت من تحته خصلات من شعرها الأشيب. كانت ملامحها منتفخة، مرهقة كأنها لم تنم الليل. جلست إلى جوارها فى صمت، ثم بعد قليل سألتها:

"إنتى هتعزِّلى إمتى يا "نور"؟ أنا اتفجت مع بنت أختى إنها تسكن معايا لما إنتى تمشى وهى وافجت. أصله من يوم أبوها ما اتجوز مرته الجديدة ماعادشى فى بيتهم راحة".

"يمكن فى أول الأسبوع الجاى. العمال خلصوا، والعفش جهز. فاضل حاجات بسيطة.. بس أنا مشغولة فى المسرحية وفكرت إنى أأجل العزال لحد ما تخلص".

"على مهلك يا بنتي. إنتى عارفة البيت بيتك، وإنتى هتوحشينى جوى لما تمشي. دى عشرة عمر، وأنا مش جادرة أتصور الشجة دى من غيرك. لكن كل شيء نصيب. بس اوعى تنشغلى عنى وتنسينى يا "نور".

"أنساكى يا ماما ؟ وده معجول".

تردد رنين جرس الباب فنظرت إلى ساعتها:

"ده لازم "أحمد عبد الدايم". اتفجت معاه إنه يفوت علىَّ عشان نروح المسرح سوا".

قامت من جلستها لتفتح الباب. وجدت "أحمد عبد الدايم" واقفًا فى الطرقة المبلطة على بعد قليل. كان يرتدى معطفًا قصيرًا، ويحمل فى يده كيسًا من شرائط للبلاستيك ملونة. رحبت به قائلة:

"أهلاً يا "أحمد".. إنت جيت فى ميعادك مظبوط. اتفضل.. ما تقلع البالطو وتقعد تفطر معانا".

"لا شكرًا.. سبقتكم"، أحنى رأسه وقال: "صباح الخير يا "أم هاشم"، ثم جلس على طرف الكنبة دون أن يخلع المعطف الذى كان يرتديه. سألته:

"إنت لابس بالطو ليه"؟

"أصل تعبان شوية النهاردة، والهوا بره شديد".

لاحظت أن يديه ترتعشان، وأن حول عينيه ظلالاً زرقاء.

"باين عليك تعبان فعلاً. حقك تبطل السجاير. أنا ما شوفتكش إلا وفى إيدك سيجارة".

"مش السجاير". تردد ثم قال "دا "علوية".. وسكت من جديد:

"علوية" ما لها.. زعلتك فى حاجة"؟

"لا.. يا ريت. كنت فى بيتها إمبارح. كانت داعية بعض الأصدقاء. وهى واقفة ماسكة كاس نبيت، وبتتكلم معايا فجأة لقيت وشها بقى أبيض زى الكنبة دى". أشار بيده، "واترمت فوق ناس كانوا قعدين جنبنا. بعتنا جبنا الإسعاف ياخدها أقرب مستشفى، وركبت أنا معاها. هناك عملولها نقل دم. خدت كيسين يعنى لتر".

توقف عن الكلام وأخرج يده من جيب المعطف بعلبة سجائر أشعل منها واحدة.

"الدكتور اللى كشف عليها رجح إن عندها حاجة اسمها لوكيميا".

"يعنى إيه"؟

"قال إنها حاجة زى سرطان فى الدم. الكرات البيضا بتاكل الكرات الحمرا". توقف لحظة، "قعدت أحلم بيها طول الليل. شوفتها ممدودة وحاجات زى دود المش الأبيض بياكل فيها. الدكتور طمنى إنها ما تتنقلش من شخص لشخص. بصراحة أنا طول عمرى باخاف لا يجيلى مرض يخلص عليّ".

أزاحت الطبق الموضوع أمامها. رأت عينى "علوية" تنظران إليها من على وسادة السرير. أحست بالضيق منه. قالت

"نروح نزورها دلوقتي".

"مش عارف يا "نور". باين عليها ما بتحبش حد يشوفها وهى مريضة. دى فتحت عينيها فى لحظة بعد ما خدت نقل الدم ولقتنى واقف جنب السرير. طردتني. قالت أوعى أشوفك هنا تانى، وراحت قافلة عينيها. فكرت أفوت عليها قبل ما أجيلك وخفت. عندها كبرياء غريب".

"طب ما اتصلتش بالمستشفى عشان تعرف حالتها دلوقتى إيه"؟

"هى فى مستشفى "صيدناوى". اتصلت قبل ما أجيلك قالولى الدكتور المشرف عليها لسه ما جاش. واتصلت تانى وأنا فى السكة قالولى بيمر. سألت على النوباتشى. قالولى بيمر معاه".

أخرج سيجارة ثانية من العلبة أشعلها وأخذ نفسًا طويلاً منها حبسه فى صدره.

قالت وهى ساهمة:

"عشان كدا".

"عشان كدا إيه"؟

تنبهت إليه:

"عشان كدا كانت بتدور على واحدة تحل محلها لما تغيب. وعشان كدا كانت متوترة وزعقت معايا يوم البروفة الأخيرة. كانت حاسة".

"يمكن.. الدكتور قاللى إنها معرضة للأزمات رغم إن اللوميكيا اللى عندها مزمنة".

""اللوكيميا يا "أحمد".

"آه اللوكيميا. بس هى ما بتقولش حاجة". صمت لحظة طويلة ثم سأل: "ودلوقتى هنعمل إيه؟ الافتتاح فاضل عليه تلاتة أسابيع، ولما سألت الدكتور قاللى دى لازم تريح أسبوعين على الأقل لأن النوبة اللى جت لها كانت شديدة".

"إنت رأيك إيه"؟

"دى كانت بتقوم بدور أساسى فى حاجات كتيرة. ما أفتكرش إن احنا هنقدر نعرض المسرحية من غيرها. مفيش حد منا يقدر يعوض عن غياب "علوية". لازم نأجل".

حملقت فى وجهه كأنها لم تفهم ما قاله. أغلقت أصابع يدها وضغطت عليها.

"نأجل .. نأجل إزاى؟! بسهولة كدا بعد كل الجهد اللى قمنا بيه".

نظر إليها كأنه فوجئ:

"قصدك نعرضها من غيرها"؟

"أيوه.. أمال هى كانت بتدور على حد يحل محلها ليه؟.. دى "علوية".. وما نقدرش نخيب ظنها فينا. دى هى كانت بتفكر العمل يستمر إزاى رغم الحالة اللى هى فيها. أنا حسيت بيها من يوم ما شوفناها أول مرة. حاجة جوايا قالت لى دى تستحق إن أنا أرتبط بيها، وإن دى كمان فرصتى ومش لازم تضيع مني".

حملق فيها دون أن يعلق. قالت فى حدة:

"بتبص لى كدا ليه؟! مش عاجبك كلامي؟ فاكر إن أنا عايزة أحل محلها وبس. إنها متهمنيش، إن عياها ده جالى من السما؟ إنتو الرجالة كدا بتستريحوا لما النسوان يقعوا فى بعضهم، ونفسكم إن ده يحصل طول الوقت عشان تفضلوا راكبين. أيوه، دى يمكن فرصتي. لكن أنا باحبها، أيوه باحبها. وعشان كدا لازم المسرحية تتعرض وتنجح عشان تحس إن جهدها مراحش هدر، إن إحنا متخليناش عنها وهى فى أزمة، عشان تخف. فاهمني؟ عشان تخف. ما تفضلش تبص لى كدا. اتحرك، حط إيدك فى إيدى وانزل معايا دلوقتى عشان نروح نشتغل".

ظل جالسًا ينظر إلى البساط تحت قدميه. التفتت إليها "أم هاشم" بنظرة فيها عتاب:

"اهدى يا بنتي. الراجل مجالش حاجة. جاعد مؤدب يسمع كل اللى بتجوليه. وكمان ما جيبنالوش حاجة يشربها بعد كل التعب اللى هو شافه.

يا أستاذ "أحمد" لازم تشرب حاجة تسندك. أجيب لك ينسون ولاّ قرفة باللبن"؟

قال:

"لا معلهش يا "أم هاشم" متشكر. أصل فعلاً لازم ننزل"، ثم وقف.

قامت من جلستها ثم خطت نحوه، وضعت يدها حول ذراعه، وقالت:

"يالله يا "أحمد".. ما تزعلش مني".

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرًا عندما دخلا من باب "المسرح القومي"، واجتازا الحوش الخارجى إلى البهو. توقف كأنه تذكر شيئًا. قال:

"سأبحث عن تليفون لأتصل بالمستشفى. ربما وجدت من يفيدنى عن أخبارها".

غاب قليلاً ثم عاد. كانت جالسة أعلى المسرح تتصفح بعض الأوراق. لمحته قادمًا فى الممر. عندما وصل أسفل خشبة المسرح ناداها فرفعت رأسها. كانت تبدو عليه الفرحة. قال:

"استطعت أن أتحدث إليها. تحسنت حالتها وتناولت وجبة خفيفة فى السرير"، ضحك. "حدثتنى وهى تمضغ. إنها تفكر فى تعديل أحد المشاهد. قالت لى إنها عندما تستقر على رأى ستبعث بالتعديل إلينا مكتوبًا".

قالت:

"يجب أن نشركها قدر الإمكان فيما سنفعل، أن ننقل إليها أخبارنا". فكرت لحظة قبل أن تستطرد: "يا "أحمد" أريد منك شيئًا. أن تتصل بجميع أفراد الفرقة، وتبلغهم أننا سنعقد اجتماعاً باكر فى الساعة الواحدة ظهرًا لمناقشة ما يجب عمله حتى يتم العرض فى موعده".

"أرقام تليفوناتهم ليست كلها عندى".

نظرت إليه فى صمت. قالت:

تصرف.. هل عندك رقم "عزيز" فى بيت "ميت سلسيل"؟

قال:

"نعم لماذا"؟

"سافر إليها بالأمس، وأريد أن يحضر معنا الاجتماع".

"ولماذا لا تكلمينه أنت، أوقع"؟

يا "أحمد".. أحيانًا تتخلى عنك حساسيتك المعهودة. لا، كلمه أنت".

***

الفصل التاسع عشر

خطت إلى الأمام وانحنت. علا التصفيق فى الصالة قويًا، منغمًا. ارتفع فى موجات تلاحقت، تهبط قليلاً ثم تصعد. تردد صداها تحت القبة العالية. أبت أن تتوقف كأنها تسعى لاختراقها، لكى تُعلن للعالم أن الليلة ولدت نجمة، أن الليلة عرفنا أن القلب هو الذى يُبصر، أن الليلة سقطت حسابات المنطق لتحيا المعجزة.

انحنت مرة ثانية وثالثة، ورابعة ثم استقامت بعودها النحيل ورفعت رأسها. أحست بالنبض فى شرايينها، بالانتصار يختال فى جسمها، بالماضى يتراجع هاربًا. الآن تحيا اللحظة التى حلمت بها، واللحظة التى عاشت وتعذبت من أجلها.

ترى بحرًا من الرءوس، والعيون، والأكف تتحرك أمامها، بحرًا يضطرب ويصخب تحيةً لها، لكنها لا تشعر به. إنها تبحث عنه هو، تبحث عن عينيه، عن قوامه المرتفع، عن يديه تمتدان نحوها. وفى لحظة رأته، فى لحظة تلاقت العيون فرأت ما أعاد إلى الحياة معانيها الضائعة.

مدت ذراعيها. تقاطر أفراد الفرقة خارجين من الكواليس إلى خشبة المسرح فصعدت الصالة على أقدامها. هبطت الستارة لكنها ظلت واقفة،

ثم تحركت خارجة إلى الليل اجتازته نسمة مرهفة. بدت القاهرة رائعة. تـوارى قبحهـا، وفى الكـواليس تجمـع أفـراد الفرقـة حولهـا. حاصروهـا، احتضنوها، قبلوها كأنها أصبحت ملكهم. لم تشعر بهم. فى أعماقها تحركت رغبـة وحيـدة، أن تفلـت مـن حصارهم. كانـت تعلـم أنـه ينتظرهـا، أنها ستذهب معه إلى مكانها، إلى أحضـانه الدافئـة لتـذيب مـرارات، ومخـاوف، وشكوكًا تراكمت، لتذيب جسمها فى جسـمه، لتسـتمع إلى كلماتـه، لتمسـك بيديه، لترى النور الذى يطل من وجهه، ولتتلاشى تلك الوحدة التـى لازمتهـا منذ أدركت أنها مثل غيرها إنسان، أتت إلى هذه الدنيا وحدها، وأنهـا مثـل غيرها ستغادر هذه الدنيا وحدها.

جاءها هديل الحمام أخذ يـروح ويجـيء عـلى عتبـة النافـذة. فتحـت عينيها ثم أغلقتهما. عادت تتأرجح بـين اليقظـة والنـوم. أحسـت فى ذراعهـا بالتنميل، بشعيرات تتحرك عند وجهها وتحتك بأنفها. كان نائمًـا إلى جوارهـا، دافسًا رأسه فى تجويف عنقها، فسحبت ذراعها بحـرص مـن تحتـه. انقطـع تنفسه لحظـة ثـم عـاد. لمحـت صـدره يعلـو ويهـبط مـع حركـة التـنفس، ومشروع ابتسامة تُحرك شفتيه، كأنه حلم بذكرى عزيزة على قلبـه. تأملـت براءة الوجه النائم كأنه عاد طفلاً فى أحضانها. سألت نفسها ترى هل تخفـى ملامحه شخصًا آخر خلفها، وهـل تبـدو هـى أيضًـا بريئـة عنـدما تغـط فى نومها؟ أحست بجسمها ثقـيلاً. بـالأمس احتفلـوا حتـى سـاعة متـأخرة مـن الليل. تجمعوا فى بيت "علوية" عـادت مـن رحلـة للعـلاج فى فرنسـا. قالـت وهما جالستان على كنبة فى حجرة المعيشة:

"يا "نور".. الأسبوع القادم سنتتقل إلى الإسكندرية اسـتعدادًا لعـروض الصيف". أخذت قضمة من أصـبع الكفتـة وابتلعتهـا بسرعـة، "أنـت أقـرب أعضاء الفرقة إليّ. لذلك أريد أن أعرض عليك القرار الذى وصلت إليـه أثنـاء السفر". أعادت الطبق الذى كانت تأكل منـه إلى المنضـدة، والتفتـت إليهـا.

"عندما كنت فى "باريس" أجمع الأطباء الذين كانوا يُعالجوننى على أن المرض الذى أصابنى هو اللوكيميا المزمنة. يبدو أن هناك نوعًا آخر من اللوكيميا.. حاد، وأكثر خطورة من ذلك الذى أعانى منه. قالوا إننى أستطيع أن أعيش فى حالة شبه طبيعية إذا ظللت حريصة على اتباع القواعد الصحية اللازمة، وعلى تفادى الإرهاق. لكن المشكلة هى أننى معرضة لنوبات مثل التى حدثت لى قبل السفر. لذلك نصحونى بأن أتوقف عن التمثيل".

انقبض قلبها. ظلت صامتة تنظر إلى "علوية" وهى تمضغ فى أصبع آخر من الكفتة، وتتفرس فى وجهها كأنها تريد أن تستشف وقع كلامها عليها، ثم قالت:

"لم أر وجهًا يُعبر عن المشاعر التى تنتابه مثل وجهك يا "نور". ليس دائمًا بالطبع. أنت تُجيدين إخفاءها. إنها صفة من صفات القادرين على التمثيل". توقفت عن الكلام لحظة كأنها تذكرت شيئًا، ثم استطردت: "اقتنعت برأيهم. إنه قرار صعب لكنى بعد تفكير وصلت إليه. المسألة ليست صحتى فحسب. الأهم هو النوبات التى قد تصيبنى أثناء القيام بدورى. إذا هاجمتنى ستتوقف المسرحية التى أشارك فيها". لمعت فى عينيها لمعة فيها تحدٍّ، "هذا طبعًا إن ظلت الأدوار التى أقوم بها رئيسية فأنا لست مستعدة للقيام بغيرها".

رفعت يدها فى حركة رافضة. قالت:

"لا... لا... يا "علوية". كيف يمكن أن تتركى المسرح. لا يمكن".

قالت:

"أترك المسرح! طبعا لا.. هذا مستحيل، إنما يمكن أن أقوم بدور مختلف عما كنت أقوم به حتى الآن".

أصبحت معلقة على حركة شفتيها.

"فكرت فى أن أتفرغ للإخراج، أن أظل مع الفرقة للقيام بهذه المسئولية. هذا إن وافقت الإدارة.. وإن وافقتم".

"وافقنا"؟! ألقت بذراعيها حولها واحتضنتها. "وافقنا. أنت روح الفرقة يا "علوية"، وروحى أنا بالذات".

ضحكت فى سرور. وضعت يدها على كتفها وقربت وجهها إليها كأنها ستقبلها، ثم فجأة تغيرت ملامحها كأن هاجسًا مر بذهنها. قالت

"روحك .. روحك أنت كالجدول الصافى لكنه يُمكن أن ينقلب إلى شيء جهنمى أخاف منه".

أحست بمزيج من الدهشة والضيق. حملقت فى الطبق الموضوع أمامها. استطردت "علوية" ببطء كأنها توزن كلماتها:

"لست مثلك يا "نور"، ربما لذلك فنك سيكون أعظم مني. الفن كالسكين يقطع فى اللحم الحى دون رحمة، ويغطس فى المستنقع ثم يخرج منه بريئًا طاهرًا. إنه يقلب القواعد رأسًا على عقب. وأنا لست مثلك. حياتك صنعتك، وهى حياة فيها أشياء غامضة أشعر بها دون أن أستطيع تحديدها".

تململت فى السرير، ففتح عينيه. قال:

"صباح الخير"، ثم سأل "مالك يا حبيبتي"؟

قالت:

"لا شيء.. ربما تعبت من سهر البارحة. احضنى يا "عزيز"، احضني".

***

الفصل العشرون

ودعت شقة "أم هاشم" وانتقلت إلى الشقة الجديدة التى استأجرتها فى "المنيرة". كانت فى الدور السابع من عمارة تُطل على "ضريح سعد"، مؤجرة لمدرس تعدى سن المعاش، وماتت زوجته فقرر أن يعيش بقية أيامه فى بلدته "بالمنوفية". تنازل عنها مقابل مبلغ خمسين ألفًا من الجنيهات لم يدفع منها شيئًا لصاحب العمارة. كانت تربطه به صلة قرابة فعطف الرجل عليه بعد وفاة زوجته. أحست بالراحة فيها. كانت هادئة بسبب ارتفاعها وبعدها عن الشوارع الرئيسية، تدخلها الشمس من جميع جهاتها.

عندما انتقلت إليها كان "عزيز المغربي" يستعد للسفر إلى "ميت سلسيل". قال لها إن الأسرة تملك بيتًا صغيراً فى القرية وإن أفرادها دب بينهم الخلاف حوله، فمن يريد أن يبيعه، ومن يفضل الإبقاء عليه. قال إنه سيقضى أيامًا قليلة فى البلدة ليحاول إقناعهم بالبيع بعد أن نزحوا جميعًا إلى المدينة، ولم يعد أحد منهم مستعد للصرف على الصيانة التى بدونها غدا فى حالة سيئة. وعدها بأن يلحق بها فى "الإسكندرية" ليقضى معها

بعض أيام الإجازة الصيفية. قبل أن يسافر زارها زيارة سريعة. قال وهو يدور فى الشقة: "جميلة. ليست كبيرة لكن لأنك لم تزحميها بالأثاث تُعطى شعورًا بالاتساع".

قالت:

"سأسمح لك أحيانًا بأن تُقيم معى فيها".

كان واقفًا على الشرفة مسندًا ظهره على الحاجز وظلت هى جالسة على مقعد من الخيزران رافعة وجهها إليه. مر ظل فوق عينيه. قال:

"بعض الأيام"؟

"نعم، يا "عزيز".. بعض الأيام، أنا أحبك"، قامت ووقفت إلى جواره. "ولم أحب غيرك، لكني.. لا أصلح للزواج. ربما لا تفهمني، لكن صدقنى هذا أفضل. هناك أشياء فى نفسى لم أستطع أن أتخلص منها. الزواج يحتاج إلى صنف آخر من النساء لست منهن".

ظل صامتًا، ثم قال:

"كما تريدين، يا "نور".

"أغضبت مني"؟

"لا.. لم أغضب". نظر إلى ساعته، وقال:

"لا بد أن أنصرف الآن لأقوم ببعض الترتيبات قبل أن أستقل الأتوبيس إلى "المنصورة".

"ستتصل بى من "ميت سلسيل" لأعرف منك متى ستحضر إلى "الإسكندرية"، أليس كذلك"؟

قال:

"طبعًا".

أوصلته حتى الباب. احتضنها واستدار استعدادا للخروج.

قالت:

"أهذا الحضن رد على رفضى للزواج"؟

التفت:

"لا .. يا "نور"، لكن ليس من السهل أن أتعامل مع امرأة مثلك".

قالت:

"ابذل جهدًا.. إن كنت تُحبنى فعلاً".

أحاطها بذراعيه وضمها إليه. همس:

"باحبك يا "نور".

ضحكت وهى تقول:

"هذا أحسن. يبدو أن عندك استعدادًا"، ثم قبلته قبلة طويلة. "لا تنس أننى سأنتظر مكالمتك. الأفضل بالليل، فى الفندق حتى نستطيع أن نتحدث بعيدًا عن الضجة".

أطلت من نافذة السيارة المسرعة إلى الرمال صبغتها أشعات الشمس الغاربة بلونها الوردى. هنا وهناك ظهرت مساحات خضراء بدا اخضرارها قويًا ناطقًا وسط رمال الصحراء. سألتها "علوية":

"فيم سرحت يا "نور"؟

قالت:

"فى الحياة".

نظـرت فى وجهها، ولم توجـه إليهـا كلامًـا، أو تسـألها عـن شيء إلى أن وصـلتا إلى الفنـدق، واسـتقلتا المصـعد إلى الغـرفتين المتجـاورتين فى الطـابق الثالث، لكن قبل أن تفترقا التفتت إليها وقالت:

"يـا "نـور"، بـاكر ستصـعدين عـلى خشـبة مسرح "سـيد درويـش"، وستعود الحياة حياة. لا تنسى هذا. تصبحين على خير".

***

الفصل الحادى والعشرون

دخلت من باب الفندق وعبرت الصالة إلى مكتب الاستقبال. قالت:

"رقم ٣٣٦ من فضلك". حملقت فى المساحة المستطيلة حيث تدلى المفتاح باحثة عن وجود رسالة. استدار موظف الاستقبال إلى كعب لوحة المفاتيح. ترى قفاه الطويل والصلعة المستديرة يحيطها شعره الأسود المصبوغ، وأذنيه البارزتين على جانبى رأسه. أحيانًا يحل محله رجل آخر قصير القامة يبدو وكأن رأسه مزروع فى كتفيه بلا عنق. تسأله:

"ألا توجد رسالة لي"؟

يبحث فى "الخبنة" الصغيرة من جديد، ويقول بصوت رفيع يُذكرها بصراخ الفئران فى سقف الدوار:

"لا يا مدام.. الرسائل كلها ستجدينها فى غرفتك تحت عقب الباب".

تصعد إلى غرفتها فى صحبة "علوية" تنظر إليها ثم تقول "تصبحين على خير يا "نور"، وأحيانًا تُضيف "كنت رائعة الليلة"، فتبتسم. لا تشعر بالفرحة كأنها تعودت أن تسمع كلمات الإطراء. تفتح الباب وتنحنى

لتلملم الكروت والرسائل الملقاة على الأرض، باحثة عن رسالة منه، أو عن ورقة تحمل رقم تليفونه فى القاهرة أو فى "ميت سلسيل". تُلقى بالكروت والأوراق فى سلة المهملات. تخلع ملابسها وتذهب إلى الحمام لُتزيل بقايا المساحيق من على وجهها. تدعك أسنانها وتغسل وجهها بالمياه. ترتدى قميصًا طويلاً من القطن وترقد فى السرير. تطفئ الأنوار وتنتظر النوم حتى يجيء.

مرت خمسة عشر يومًا دون أن يتصل بها. فى صباح يوم جمعة هبطت على غير عادتها من غرفتها لتتناول الإفطار فى صالة الطعام. ضاقت بالجدران عُلقت عليها صور لا معنى لها، بالسرير وبياضه البارد، بالجلوس فى الشرفة والحملقة فى البحر، وتتبع السيارات السائرة على الكورنيش، وهواة الرياضة الصباحية يرتدون الشورتات والأحذية المطاطية الملونة، ويمارسون المشى أو الجرى وهم يحركون الذراعين بطريقة آلية.

عندما دخلت إلى المطعم وجدت "أحمد عبد الدايم" جالسًا وحده إلى أحد الموائد. تظاهرت بعدم رؤيته، لكنه لاحظ قدومها من الباب فرفع يده وأشار إليها ليُحييها. خشيت إن اكتفت بالرد على تحيته، والجلوس إلى مائدة أخرى لتناول إفطارها أن يسيء الفهم فاتجهت إلى حيث كان يجلس. قالت:

"صباح الخير يا "أحمد". عندك مانع من مشاركتى المائدة معك"؟

ابتسم فى سرور.

"مانع؟ قبل أن تدخلى كنت أقول لنفسى لم أر "نور" طوال الفترة الماضية إلا على خشبة المسرح. بعد ذلك تختفي. أهلاً بك يا جميلة. الإفطار اليوم سيصبح حفلاً".

ضحكت.

"مبالغ أنت يا "أحمد". تذكر أننا لسنا على خشبة المسرح الآن".

"لا، والله يا "نور"، أنا سعيد حقًّا بهذه الفرصة للتحدث معك. أراك كل ليلة ومع ذلك لك وحشة كبيرة".

اقترب النادل، فقالت:

"قهوة لو سمحت"، فرد "حاضر"، وأشار إلى مائدة طويلة وُضعت عليها مأكولات الإفطار "البوفيه هناك".

سألها "أحمد عبد الدايم"

"ماذا تُريدين من البوفيه؟ سأحضره لك".

"لا شيء الآن.. سأقوم أنا إليه فيما بعد".

ظل صامتًا ينظر إليها ثم قال:

"ماذا بك يا "نور"؟ لماذا تختفين كل ليلة بعد العرض"؟

"لا شيء.. فقط أحس بالإرهاق وبحاجة إلى النوم حتى أستطيع أن أستمر في دوري كل ليلة".

"لا.. يا "نور". هناك شيء"، صمت ثم سألها: "أين "عزيز"؟ لماذا لم يأت معك"؟

بحثت عن رد. ما الذي تستطيع أن تقوله؟ أنه انصرف عنها بعد كلامها عن الزواج. لأن عنده حياة أخرى هو منشغل بها؟ ربما ليس هذا ولا ذاك. لكن لماذا لم يتصل بها طوال هذه المدة؟ قالت:

"ربما عنده اجتماعات. أنت تعرفه أكثر مني".

حملق في الطبق الموضوع أمامه، ثم سأل:

"هل اتصل بك"؟

ترددت، ثم قالت:

"لا".

"طوال هذه المدة؟ منذ انتقلنا إلى "الإسكندرية"؟

" نعم".

"غريبة! حتى إذا حدثت مشكلة فـ"عزيز" لا يفعل هذا. هل حاولت الاتصال به"؟

"لا".

"لماذا"؟

قالت بعصبية:

"لن أتصل أنا به".

ألقى إليها بنظرة فيها مزيج من الحنان والسخرية، ثم كأنه يتدارك قال:

"سأحاول أنا الاتصال به، عندك مانع"؟

"لا طبعًا..•هو صديقك قبل أن أعرفه".

"أين هو الآن"؟

"سافر إلى "ميت سلسيل" قبل أن أحضر إلى "الأسكندرية".

"سأحاول الاتصال به هناك، ثم فى القاهرة. بعد أن مرضت أمه جاءت بنت عمه المطلقة لتسكن معه".

"لم أعرف هذا.. لم يحدثنى عنها".

"المهم. سأصل إليه حتمًا. اتركى الأمر لي. أنا أخدمك بعيني".

"تسلم عينيك يا "أحمد" إنهما جميلتان".

احمر وجهه. عاد يأكل من طبق البيض الموضوع أمامه.

لم تلتق بـ"أحمد عبد الدايم" بعد العرض أو فى اليوم التالي. بحثت عنه وسألت عددًا من أعضاء الفرقة دون أن تصل إليه، فعادت إلى الفندق

وصعدت إلى غرفتها. طلبت حساء خضراوات، وزبادى تناولتهما بسرعة، وبعدها ظلت تقرأ لبعض الوقت لكن ذهنها كان مشتتًا فأوت إلى الفراش تاركةً نور الحمام مضاءً لعل "أحمد عبد الدايم" يطلبها فتهتدى إلى السماعة بسرعة، لكنه لم يتصل بها.

فى الصباح أيقظها رنين التليفون. جاءها صوته وهو يقول:

"آسف يا "نور".. تأخرت عليك لكن بالأمس طوال النهار، وجزءًا من الليل وأنا أجرى اتصالات بحثًا عن "عزيز". تليفون البيت فى "ميت سلسيل" لا يرد، فاتصلت بأحد أقربائه من الفلاحين اهتديت إليه عن طريق عامل السويتش. قال لى إنه عقد اجتماعًا مع أقربائه فى البيت، واتفقوا على بيعه. يبدو أنهم كانوا مختلفين ثم اتفقوا. ظل فى "ميت سلسيل" أربعة أيام ثم سافر إلى "القاهرة". طلبته فى شقته هناك فردت على بنت عمه التى تسكن معه. قالت إنه لم يعد إلى البيت، ولم يتصل بها، وأنها منزعجة جدًا لأنها لا تعرف أين هو، وتخشى أن يكون حدث له مكروه، لكنى طمأنتها. قلت لها إنه لو حدث، كنا سنسمع شيئًا. اتصلت بجميع من أعرفهم من أصدقائه. لم يره أو يكلمه أحد منهم، وأخيرًا عثرت على محسن شكرى. عاد إلى عيادته بعد زيارة قصيرة إلى "جمصة". أبلغنى أنه هو أيضًا لم يره من فترة، ولم يسمع منه".

أحست بالسماعة ترتعش فى يدها. توتر صوتها وهى تقول:

"يعنى تبخر! أهذا هو كل ما عندك"؟!

قال:

"يا "نور".. بذلت كل جهد ممكن لأصل إليه، وسأواصل البحث. لا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا".

قالت فى يأس:

"يعني، قُبض عليه"؟

"لا أعرف.. ربما اختفى فى مكان ما".

"أنت تريد أن تطمئني. الاختفاء ما كان ليمنعه عن الاتصال بى تليفونيًا أو بأية وسيلة".

قال:

"يا "نور".. أقترح أن نتناول الغداء سويًا فى مطعم "سان جيوفاني" لنتحدث. يمكن أن نلتقى هناك الساعة الثانية ظهرًا. أنت فى حاجة إلى تغيير، وأنا كذلك".

"أين مطعم "سان جيوفاني" هذا"؟

"لا أعرف، لكن سمعت أنه مطعم جيد يُطل على البحر مباشرة عند شاطئ "ستانلي". إن أردت يُمكننى انتظارك فى استقبال الفندق لنذهب سويًا. ربما الأكل اللذيذ، ومنظر البحر، وزجاجة نبيذ تساعدنا على تبديد الهم".

قالت بحدة:

"أنا لا أشرب النبيذ يا "أحمد".

ضحك:

"صعيدية، وملتزمة طبعًا، لكن ربما جاء الوقت لتتمردى. موعدنا الساعة الواحدة والنصف فى الاستقبال".

توجهت إلى الشرفة وجلست. جاءها خاطر. ما الذى دفعها إلى أن تنفى بهذه الحدة أنها تشرب النبيذ؟

***

الفصل الثانى والعشرون

انتهى موسم الصيف وعادت الفرقة إلى "القاهرة". هبطت من شقتها وسارت فوق الرصيف حتى شارع "قصر العيني". اتصل بها "أحمد عبد الدايم" وهى تستعد للنزول واقترح عليها أن يلتقيا عند الساعة الحادية عشرة فى فندق "شبرد" ليتناولا طعام الإفطار سويًّا قبل أن يتوجها إلى المسرح. ظنت للحظة أن لديه أخبارًا عن "عزيز المغربي"، ثم طردت الفكرة عن ذهنها. لا تريد أن تبدأ يومها بالأمل ليتضح فيما بعد أنه كان وهمًا. كاد يُصيبها اليأس بعد فشل كل محاولاتهما للاهتداء إلى مكانه. لم يتركا جهة من الجهات إلا وذهبا إليها ليسألا عنه. فى كل مرة تقابلهما الوجوه الحليقة نفسها تنطق بالكلمات الناعمة المهذبة نفسها: "للأسف يامدام لا نعرف عنه شيئًا ولا معلومات عندنا عن مكانه"، ثم يأتى السؤال: "ما صلة القرابة التى تربطكما به؟ آه زملاء فى المهنة؟ أليست له أسرة تسأل عنه وتهتم به؟ على أية حال إن أتتنا معلومات عنه سنتصل بك يا مدام". تلتقط عينى الرجل وهى تستقر على صدرها. "لو سمحتِ اتركى رقم تليفونك مع السكرتير قبل أن تغادرى المكتب حتى يُمكننا الاتصال بك.

حصل لنا الشرف. مع السلامة"، وبعدها تشعر بنظراته تفحص جسمها من الخلف وهى خارجة.

يُخاطبونها هى دائمًا. تخشى أن يتضايق "أحمد عبد الدايم" من تجاهلهم له. سألته مرة فقال: "ما الذى تتوقعينه؟ امرأة جميلة ومشهورة مثلك.. إنك تسيلين لعابهم. صدقينى أنا مرتاح لهذا التجاهل". يضحك ضحكة قصيرة جافة لا مرح فيها. "لا أريد أن يهتم بي رجال الأمن. لكن لماذا لا تتركين هذه المهمة السخيفة لي، وتتفادين هذه اللقاءات؟ أتعتقدين أننى لا أدرك ما تشعرين به وأنت جالسة أمام هؤلاء؟ ثم إن إعلانك الاهتمام بـ"عزيز" على هذا النحو لن يُعتبر أمرًا عاديًا فى نظر السلطات". ترد عليه قائلة: "وأتركك تتحمل كل هذا وحدك يا "أحمد". إن وجودى معك ربما يُقلل الشبهات، ويحول سؤالنا إلى اهتمام من ناس فى المهنة الواحدة، كما أن وضعى ربما يفتح أبوابًا كانت ستظل مغلقة".

يُمسك بذراعها وهما يجتازان الشارع. يتوقفان عن السير لحظة. ينظر فى عينيها، ويقول: "يكفينى أن أنتهز هذه الفرصة لأقضى أكبر وقت ممكن مع إنسانة جميلة مثلك. "عزيز المغربي" صديقي، وهو زميل جمعتنا معارك مشتركة فى منظمة سياسية يسارية واحدة، تركناها عندما اقتنعنا بعدم جدوى العمل السرى، وتريدين منى ألا أسأل عنه عندما يختفى هكذا"؟ تشعر بغصة صغيرة فى حلقها. تبلع ريقها وتعود إلى حيث يقفان على الرصيف. يخطر فى بالها أنه يجب أن تسأله عن هذه التجربة عندما يكون الوقت مناسبًا، لكن فى زحمة انشغالها بالعمل تنسى.

توقفت أمام كشك للجرائد عند الناصية. لمحت صورة كبيرة لها، ومانشيتًا على الصفحة الأولى يقول: "نور" تتألق فى مسرحية "العود". تأملت الصورة وتأهبت لشراء الجريدة، ثم تذكرت أن مسئول الإعلام فى الفرقة يجمع لها مقتطفات الصحف والمجلات التى تنشر شيئًا عن المسرحية أو

عنها. تشعر بلحظة من الرضا عندما يثنون على أدائها سرعان ما تتبدد، فمع الزمن تلاشى رونق الفرحة الأولى. لو كان "عزيز" معها ربما تغير إحساسها، أم هو التكرار يطفئ الشعلة التى كانت تُحس بها فى البداية؟

اجتازت شارع "قصر العيني"، وسارت فى شارع "رستم" مستمتعة بالأشجار صنعت شبكة ظليلة من الخضرة. نظرت إلى ساعتها. لا داعى للعجلة. تستطيع أن تتنزه قليلاً على شاطئ النيل قبل أن تدخل إلى الفندق. لا تريد أن تجلس فى "الكافتيريا" وحدها، أن تتحمل حملقة العيون، والنظرات التى توجه إليها. أحيانًا يقوم أحدهم، ويقترب منها ليسألها: "حضرتك "نور سلمان"، أليس كذلك؟ أُعجبت جدًّا بتمثيلك فى دور الفتاة التى فقدت بصرها، لكن لو سمحتى عندى ملاحظة بسيطة تتعلق بأدائك فى الفصل الثاني. ألم يكن من الأفضل...". لا يتركونها فى حالها حتى إن امتنعوا عن التحدث إليها. دائمًا توجد همسات ونظرات فيها ذلك المزيج من الفضول والتطفل الذى يوترها، ويفسد عليها جلستها.

عبرت البهو واتجهت يمينًا إلى الصالة التى تناثرت فيها الموائد. وجدته جالسًا إلى جوار إحدى النوافذ العريضة أخذ يُطل منها. أحس بحضورها عندما دخلت فالتفتَ. أشرق وجهه وأشار بيده حتى تراه. تأملته وهى تخطو نحوه. لاحظت أن الشيب زحف على شعره، أن فى وجهه ما ينم عن أثر الزمن، عن شيء من الكبر. بدا لها أن هذه التغيرات أضافت إليه نضجًا كان يفتقده عندما التقيا لأول مرة. تذكرت أن يومها كان "عزيز" هو الذى بادر بالتوجه إليها، وهو الذى سألها عن المكان الذى تفضل الذهاب إليه بعد المسرحية.

قام وشد على يدها. قال:

"مرحبًا يا "نور".. هل تناسبك هذه المائدة؟ أم تفضلين ركنًا ليس فيه ناس"؟

قالت:

"لا، مناسبة جدًّا".

وضعت حقيبتها على مقعد إلى جوارها وجلست.

"وأنا أعبر الصالة إليك تأملتك. أتعرف أنك مع الزمن أصبحت أكثر وسامة؟ أندهش كيف أنك ما زلت بلا صديقة، أو زوجة حتى الآن. ألم تحب امرأة أبدًا"؟

قال ضاحكًا: "أحببت طبعًا، لكن حبى الوحيد حتى الآن هو أنت، وحيث إنك تحبين "عزيز"، ماذا تريدين أن أفعل"؟

ضحكت:

"يا "أحمد يا عبد الدايم" ألا تستطيع أن تتوقف عن التمثيل"؟

قال محتجًا. "أنا لا أمثل. هذه هى الحقيقة. قررت أن أكتفى بالصداقة. أحيانًا أشعر بالإحباط لكن الصداقة معك حلوة".

مدت يدها وربتت على ذراعه. أشار إلى النادل وعندما جاء قال:

"قهوة، وزبادى، وعسل أبيض، وعيش محمص". هزت رأسها، فخاطب النادل الشاب:" أظن أنك سمعت؟ هات هذه الطلبات حالاً لو سمحت فليس عندنا وقت للانتظار". ابتعد النادل سائرًا بسرعة ، فالتفت إليها ثانيًا.

"يا "نور" اليوم عندى أخبار عن "عزيز".

خفق قلبها. حملقت فى وجهه منتظرة.

"اتصل بى "محسن شكرى" فى الصباح. أخبرنى أنه موجود فى "سجن أبو زعبل"، وأنه زاره هناك بالأمس. اهتدى إلى مكانه منذ أسبوع لكن أراد أن يتأكد قبل أن يبلغنى بشيء".

دارت الدنيا حولها. أمسكت بحافة المائدة ومالت برأسها عليها. سـألها في انزعاج.

"ما لك يا "نور"؟

رفعت رأسها وقالت:

"أبو زعبل"؟! لم أسمع عن هذا السجن لكن الاسـم مخيـف". تملكتهـا رعشة.

مد يده بسرعة ودفع بقدح الشاى إليها، قال:

"خذى رشفة من هذا الشاى إلى أن تأتى القهوة. "عزيز" بخير. أبلغنـى "محسن" أن حالته جيدة، وأنه يتوقع إذا صدر عليه حكم أن يكون خفيفًـا. لم يعثروا معه على أية أوراق، ولا توجد ضده سوى اعترافات أحد زملائـه فى القضية".

"حكم؟! ما الذى فعله حتى يضعوه فى السجن"؟!

"التهمة المعتادة. قلب نظام الحكم بالقوة والإرهاب".

"أريد أن أزوره".

تردد ثم قال:

"لا أعرف إن كان هذا ممكنًا".

"لماذا لا يكون ممكنًا؟ كيف زاره "محسن شكرى" إذن"؟

"قال لى إن لديه صديقًا يعمل طبيبًا فى مصلحة السجون، وهـو الـذى دله على مكانه، ثم ربما لا تعلمـين لكـن أخـت "محسـن" تزوجـت المـدعى الوطنى العام وعن طريقه أمكن ترتيب الزيارة".

ظلت صامتة تُفكر فيما سمعته.

"إذن "محسن شكرى" يُمكنه أن يرتب لى هذه الزيارة".

ألقى إليها بنظرة فيها توجس "على مهلك يا "نـور". لا أعـرف إن كـان سيوافق على هذا. "محسن شكرى" لم يقم بالزيـارة رسـميًا. لم يقـدم طلبًـا، ولم تكن هناك أوراق. المسألة كلها تمت وديًّا".

"وديًّا؟ أليست الزيارة حقًّا للمسجون"؟

"بالطبع، لكن فى هذه القضية الزيـارات ممنوعـة. هنـاك حـذر أمنـى شديد".

"لماذا"؟

"سألت "محسن" لكنه لا يعرف السبب".

"فليرتب لى زيارة ودية. اتصل به وكلمه فى هذا".

بدا عليه الارتباك. سألته:

"ما لك؟ خائف"؟

قال:

"يـا نـور، لـيس هـذا هـو الموضـوع. خـائف طبعًـا. لكـن لا أظـن أن "محسن" يُمكن أن يجازف إلى هذا الحد".

"لماذا زاره إذن"؟

"محسن" شخصية غريبة. من الصعب أن تفهمى مقاصده".

قالت:

"تحـدث معـه فى هـذه المسـألة واطلـب منـه أن يتصـل بى لعمـل الترتيبات اللازمة".

"ربما لن يوافق".

ألقت إليه بنظرة فيها حنق. قالت:

"لن يجازف، لن يوافق، ليس سهلاً. أليس عندك كلام آخر؟! هل أنت مستعد أن تفاتحه فى الموضوع أم لا؟ قل لى بصراحة".

قال: "مستعد".

دست ملعقتها فى سلطانية الزبادى. رفعتها إلى فمها وابتلعتها ثم قالت:

"إذن ماذا تنتظر؟ قم الآن واطلبه من تليفون الفندق".

***

الفصل الثالث والعشرون

وقفت أمام المرآة تفحص نفسها. كانت ترتدى ثوبًا صيفيًا خفيفًا تاركة شعرها الأسود الطويل يهبط حرًا على كتفيها العاريتين. حول قدميها صندل أورجوانى اللون ارتفعت شرائطه لتلتف حول ساقيها. أمسكت بالمرود وأضافت قليلاً من الكحل إلى جفونها. مسحت بإصبع من الروج الداكن على شفتيها، وشبكت فى أذنيها فصين صغيرين من اللؤلؤ. تأملت ما فعلته لحظة ثم توجهت إلى غرفة المعيشة. أغلقت الستارة الكثيفة على النافذة فتلاشت بقايا الأصوات الصاعدة من حركة السيارات فى شارع "قصر العيني". أضاءت المصباح المنتصب فى الركن قرب الكنبة الكبيرة ثم جلست عليه تتصفح مجلة "مسرح الغد".

بعد قليل سمعت رنين الجرس فقامت واجتازت الصالة. نظرت خلال العين السحرية قبل أن تفتح الباب. على العتبة كان يقف الدكتور "محسن شكرى" مرتديًا بزة كحلية اللون أغلق أزرارها فبدت ضيقة على جسمه المربع. فى يده كان يحمل أربعة عيدان من القرنفل رؤوسها كبيرة الحجم حمراء اللون. قالت:

"دكتور "محسن" أهلاً وسهلاً، تفضل". وأفسحت له الطريق. مد يده بالزهور قبل أن يدخل، فأخذتها منه. تأملتها لحظة ثم قالت:

"زهور جميلة. كيف عرفت أن الزهور التى أحبها هى القرنفل والأحمر بالذات". قربتها من أنفها وقالت: "الله.. رائحتها حلوة فعلاً ".. ثم وضعتها على رف إلى جوار الباب، وقادته إلى حجرة المعيشة. أجلسته على مقعد وقالت:

"أستأذنك لحظة حتى أضع زهور القرنفل فى وعاء حتى تحتفظ برونقها".

ضحك ضحكته الجافة وأشار بيده كأنه يقول لا داعى للاستئذان. غابت قليلاً ثم عادت وهى تحمل وعاءً طويلاً وضعت فيه الزهور بعد أن ملأته بالماء. تركت الوعاء على المنضدة البيضاوية الموضوعة أمامهما. خطر فى بالها أنها تستطيع أن تتأمل الزهور عندما لا تريد أن تنظر إليه. سألته:

"أعثرت على البيت بسهولة"؟

قال:

"بعد وصفك لموقعه لم أجد أى صعوبة".

"طمأنتني. كنت أخشى أن تتوه".

"أتوه؟ كيف أتوه وأنا طبيب عيون"؟ ترددت ضحكته الجافة مرة أخرى. "ثم هذه ليست زيارة عادية بالنسبة إليّ. لا يتاح لى أن أزور ممثلة مشهورة مثلك كل يوم".

قالت:

"مرت سنين طويلة منذ لقائنا الأول وأصبحت أنت طبيب عيون معروف. الزمن يجرى".

أتى بحركة من يده تنم عن التواضع.

"لم أنس هذا اللقاء. قلت لنفسى يومها إنك ستذهبين بعيدًا، وتحقق ما أحسست به".

صمت لحظة وألقى إليها بنظرة سريعة كأنه يتحسس ما يُمكن أن يقوله بعد ذلك. "مررت بظروف صعبة. أعرف هذا جيدًا، مع ذلك تغلبت عليها يا "نور".

همس الصوت فى أعماقها: "ها هو قد بدأ". ابتسمت ببراءة.

"نعم، كانت ظروفًا صعبة بالفعل، لكن بفضل الأصدقاء استطعت أن اجتازها، وأتركها ورائي".

"يسعدنى أن أسمع هذا". أخرج منديلاً من جيبه، ورشقه فى كم السترة، ثم أخرج علبة سجائر فضية وولاعة ووضعهما على المنضدة. سألها كأنه يتدارك: "هل عندك مانع فى أن أدخن سيجارة"؟

قالت:

"أبدًا، خذ راحتك. ألا تريد أن تشرب شيئًا.. قهوة أو شاى، أو عصير، أو ربما..."، ابتسمت ابتسامة سريعة "تفضل كأسًا من الويسكي".

حملق فى وجهها. هذه النظرة تعود إليها من الليلة التى وقفوا فيها يتداولون حول المكان الذى سيذهبون إليه بعد المسرحية. بحثت فى ذهنها. ترى بماذا تذكرها؟ قال:

"والله فكرة. قضيت اليوم أعمل دون انقطاع. كأس ويسكي الحقيقة اقتراح موفق".

غابت مرة أخرى فى الداخل، ثم عادت تحمل صينية وضعت عليها زجاجة ويسكى "بلاك ليبول" مغلقة، وكأسين مضلعتين وزجاجة مياه، ووعاء فيه مكعبات من الثلج، وأطباقًا فضية فيها لوز، وسودانى مقشر، وجوز الكاشو، وشرائح بطاطس رفيعة محمرة. فتحت الزجاجة وقبل أن تصب فى كأسه قالت:

"أوقفنى عندما تكون الجرعة مناسبة".

أحست بعينيه تمران على وجهها ثم تهبطان. ظلت تصب فى الكأس ثم تنبهت إلى أنه سرح فتوقفت. قالت:

"الكأس امتلأت حتى نصفها".

ضحك فى ارتباك وأخذ يسعل، ثم سألها:

"ألن تشربى معي"؟

"ربما .. بعد قليل"، ثم نقلت جزءًا من سائل الويسكى إلى الكأس الفارغة وقالت: "ثلج"؟

"مكعبان وقليل من الماء لو سمحت".

رفع الكأس.

"فى صحة الصداقة بيننا" ورشف منها ما يقرب من الربع، ثم سألها:

"لكن الظروف الصعبة انتهت، أليس كذلك"؟

نظرت إليه مليًا:

"نعم انتهت".

رفعت كأسها مرددة: "فى صحة الصداقة بيننا".

ارتشف من كأسه ببطء وهو يدور بعينيه حول الغرفة. تململ فى مقعده فسألته:

"الجو حار اليوم. يُمكننى أن أفتح التكييف".

قال:

"لا.. جسمى حساس. عندما أخرج من هنا قد أصاب بنزلة برد".

"تستطيع أن تخلع سترتك إن أردت".

"هذا ممكن". خلع السترة، فساعدته. أخذتها منه ووضعتها على صندوق من الخشب الداكن مرصع بدوائر من النحاس. جلس من جديد

مرخيًا جسمه فى المقعد. مدت له طبق جوز الكاشو فأخذ منه حفنة انشغل بابتلاعها. قالت:

"أنت تشرب ببطء. أهذا أفضل صحيًا"؟

قال بلهجة فيها فخر:

"لحسن الحظ لا أتأثر بسهولة".

مدت جسمها فوق الكنبة كأنها تُريحه فلمست ركبتها ساقه. تركتها حيث هى، فانتظر ثم ألصق ساقه بساقها. سحبتها قليلاً بحيث يستطيع أن يلمسها ثانية. سألته:

"عندك أولاد"؟

قال:

"لم أتزوج".

"وأنا كذلك".

"لماذا"؟

"لا أصلح للزواج. أحب حريتي".

"نحن إذن من فصيلة واحدة. أحسست بذلك منذ أن رأيتك أول مرة. أن بيننا تآلف".

أخذت رشفة من الويسكى وقالت:

"ربما".

قال:

"بل أكثر من ذلك".

اقترب منها بوجهه، فأحست بأنفاسه. أمسكت بكأسه الفارغة وصبت فيها من زجاجة الويسكي، ثم أضافت مكعبين من الثلج. أمسكت

بزجاجة الماء ثم أعادتها إلى مكانها دون أن تصب منها. ناولته الكأس وقالت:

"اشرب.. الحديث يُصبح شيقًا مع الشرب..".

"الحديث فقط"؟ وضحك.. أحست أنها منذ زمن لم تسمع ضحكة قبيحة مثل هذه. قالت:

"قاطعتك. كنت تقول...".

بدت على وجهه علامات البلادة كأنه نسى ثم استدرك:

"آه.. أحسست نحوك بانجذاب شديد. هل تريدين الحقيقة"؟

"طبعًا. ماذا تظن"؟

"منذ زمن.. وأن أحبك يا "نور".

"منذ متى؟ منذ أن سُجن "عزيز المغربي"؟

تراجع فى جلسته، وبدا عليه الارتباك.

"لا .. والله.. لكنى لم أجرؤ على أن أفصح لك عن مشاعرى".

"والآن"؟

"عزيز" فى السجن، ولا أحد يعرف متى يُمكن أن يخرج. سمعت أن القضية التى هو مقدم فيها كبيرة، وخطيرة للغاية. إلى متى ستنتظرينه"؟

حملقت فى وجهه. مد يده إلى كأسه كأنه يحتمى بها. قالت:

"أريد أن أسألك هل أنت مستعد لكى تساعدنى فى زيارته"؟

ظل صامتًا. تأملها بنظراته من أعلى الكأس كأنه يزنها. هاتان العينان. بماذا تذكرانها؟ قفز ذهنها إلى الوراء. رأت نفسها جالسة فى الشمس إلى جوار باب الدوار. على مقربة منها زحفت سحلية تنظر إليها من طرف عينيها. سألها:

"ولماذا تُريدين زيارته"؟

"سر لا أستطيع أن أبوح به الآن. ربما فيما بعد. هـذا لا يمنـع أننـى فى حاجة إلى رجـل معـي، قـم واجلـس هنـا". أشـارت إلى مسـاحة صـغيرة إلى جوارها، فقام. مدت يدها إلى طبق البطاطس المحمرة. أخذت منها شريحـة ودستها بين شفتيه، ثم شريحة ثانية. وضـعت ذراعهـا حـول كتفيـه وقبلتـه على خده. استدار بجسمه وحاول أن يقبلها على فمها فأفلتت منه. قالت:

"ما رأيك"؟

نظر إليها من عينين احمر بياضهما. رفعت كأسها وأخذت منها رشـفة ثم قربتها من فمه وسقته. أحست بأنفاسه لاهثة. سألته:

"ما رأيك"؟

قال:

"قلت لك إننى أحبك، وإننى منجذب إليك منذ سنين".

قالت:

"إذن رتب لى زيارة واحدة لسجن أبو زعبل ألتقى أثناءها مـع "عزيـز المغربي".

رأت عينى السـحلية تحملـق فى عينيهـا. همـس الصـوت فى أعماقهـا: "سـيأخذ منـك مـا يريـد، ويحنـث بوعـده"، ثـم همـس الصـوت بعـدها: "سأضاجع هذا الكلب بحيث يلهث ورائى إلى الأبد".

رقدا على السرير عاريين. فتحت له ساقيها، فأحست كأن حيّة دخلـت فى جسمها. صرخت:

"الله يا "محسن" يا حبيبي، أحبـك"، وكتمـت الغثيـان الـذى صعد فى صدرها.

***

الفصل الرابع والعشرون

فتحت باب سيارة الأجرة الخلفى وجلست. لمحت رأس السائق غطاه الشعر الأشيب يبرز أعلى ظهر المقعد، فاطمأنت. قالت:

"صباح الخير ياسطى "محمدين". إنت عارف حتروح فين، مش كده"؟

قال:

"أيوه يا ستي.. "سجن أبو زعبل".

"وحاتستننانى لحد ما اخلص الزيارة. وترجعنى زى ما اتفجت معاك "أم هاشم"؟

هز رأسه.

"طبعًا يا ستي. أنا أخدمك بعنيا الاثنين عشان خاطر "أم هاشم". مانساش فضلها عليّ. دى خدمتنى خدمة ما تتجدرش أيام ما كانت بتشتغل عند الخواجة "صاروفيم" فى "الزمالك".

مرت شاحنة إلى جوارهما فغطى صوتها على جزء من كلامه، ولم تسمع البقية أضاعها ضجيج الشارع اختلط بأزيز محرك السيارة.

بـالأمس ظلـت سـاهرة طـوال الليـل، راقـدة فى السريـر وعيناهـا مفتوحتين. كان ذهنها مشغولاً بالزيارة التى قررت الإقدام عليها. ظـل وجـه "عزيز" محلقًا فى خيالها. رأته نحيلاً، شاحبًا من معاناة الشهور الطويلة التـى قضاها فى السجن. تساءلت فى لحظة: ترى هل أصبح لـه شـارب أو لحيـة؟ إنها لا تحب اللحى والشوارب وهو يعلـم هـذا عنهـا. لا بـد أنـه سـيتحايل حتى يحصل على شفرة ليحلق ذقنه اسـتعدادًا لزيارتهـا. قـرأت فى يوميـات كتبها ممثل عاش فترة مـن حياتـه مسـجونًا أن الحـراس يقومـون بتهريـب أشياء كثيرة إلى داخل السجن مقابل مبالغ من المـال يحصـلون عليهـا. لكـن لماذا ينشغل ذهنها بمسائل كهذه ليست لها أهمية؟ تغير أم لم يتغير ستظل له الجاذبية التى لفتت نظرها إليه. ابتسمت. رأت الإشراق الذى كـان يطـل من وجهه عندما يلمحها تنطلق من بـاب المسرح ليـذهبا إلى سـهرة سـويا. تُرى هل بعد هذا الفراق الطويل سـتأتيهما الكلـمات سـهلة؟ سـمعت مـن "أحمد عبد الدايم" أنه يعيش وحده فى زنزانـة، وأنهـم يُطلقـون عـلى هـذا وصف الحبس الانفرادى. عرفته ميَّالاً للصمت. ربما سيكون عليهـا أن تبـادر هى بالكلام. ستحكى له عما فعلته أثناء الفترة التى تغيب فيها. سيسعد بمـا حققته، بالتجارب التى مرت بها الفرقة. ستقول له إنها تحبه، وإنها لا يمكـن أن تحب غيره. الغياب الطويل فى السجن يمكـن أن يُولـد شـكًّا عنـده. تُـرى هل تستطيع أن تقبله، أن تحتضنه؟ سمعت أنه أثناء الزيارة يوجـد ضـابط يقوم بالمراقبة. وليكن. لن يمنعها هذا من إظهـار الحـب الـذى تحملـه لـه. تشعر بالدموع تطفو فى عينيها. يجب ألا تبكى أمامه.

ظلت الخـواطر تـدور فى ذهنهـا متلاحقـة، مرهقـة. أضـاءت المصباح وقامت لتبحث فى المكتبة عن شيء تقرأه. بعد قليـل توقفـت عـن البحـث. ذهبت إلى الحمام. فحصت وجهها فى المرآة، فبـدا لهـا أنـه تغـير، أن الوجـه

الذى تراه ليس وجهها. رشته بقليل من الماء الدافئ وجففته، ثم عـادت إلى غرفة النوم. رقدت فى سريرها مرة أخرى. رفعت الغطـاء فـوق رأسـها فعـاد إليها وجهه ينظر إليها ثم يختفى كأنه انصرف عنهـا. ألقـت بالغطـاء جانبًـا وقامت من جديد. توجهت إلى حجرة المعيشة، وأضاءت جهـاز التليفزيـون. ظهرت على الشاشة مطربة شابة كانت تنثنى وتتأوه بأغنية لم تسمعها مـن قبل. أغلقت الجهاز. اجتازت الغرفة ووقفت أمام المـرآة الكبـيرة البيضـاوية الشـكل لتتأكـد أن إحساسـها الأول لم يكـن فى محلـه. أحسـت أنـه تأكـد فخرجـت مـن غرفـة المعيشـة بسرعـة وتوجهـت إلى المطبخ. فكـرت فى أن تصنع لنفسها قدحًا من الشاى. نظـرت إلى سـاعة الحـائط. وجـدتها تقـترب من السابعة صـباحًا، فقـررت أن تتصـل "بـأم هاشـم" جاءهـا صـوتها عـلى التليفون وهى تقول: "تعالى افطرى معايا يا "نور". أنا حاستناك". عـادت إلى الحمام وأخذت دشًّا من الماء الساخن. ارتدت ملابسها بسرعـة ثـم هبطـت إلى الشـارع وبحثـت عـن سـيارة للأجـرة، وفى السـاعة الثامنـة كانـت تـدق الجرس عند باب الشقة.

سمعت صوت سائق "التاكسي" وهو يسألها.

"لا مؤاخذة يا أستاذة لكن إيه اللى موديك "سـجن أبـو زعبـل"؟ حـد من عندكم محبوس هناك"؟

قالت:

"أيوه ياسطى".

قال:

"إن شاء الله ربنا يفرجها عنه، ويخرج مـن السـجن عـن جريـب. هـو يجرب لك إيه"؟

فكرت لحظة ثم قالت:

"خطيبي".

"ورايحالوه لوحدك ليه؟ كان حد ييجى معاك".

لم ترد فقال:

"آسف ياست. مكانش جصدى"، وأخذ يضغط على مفتاح الراديو إلى أن تردد صوت القرآن المرتل.

كانت "أم هاشم" جالسة على الكنبة. تأملت وجهها الأسمر، والأطباق المرصوصة على مائدة الإفطار. أحست كأنها تعود إلى مرفأ للأمان تركته. مالت عليها، وقبلتها. قالت:

"أهلاً يا بنتي.. وحشتينا. بجالك زمان ما جيتيش. كده برضه تغيبى عنى الغيبة دى كلتها".

"معلهش يا ماما، الشغل واخدنى ليل ونهار".

"طب يعنى ما تجدريش تيجى تريحى هنا شوية". ربتت على رأسها بحنان. ثم قالت: "ياالله، مش عايزة "سد الحنك" اللى أنا عملتهولك يبرد". رفعت الغطاء من على طاسة حمراء اللون، وقالت: "لازم تاكليه وهو سخن".

"حاكل واحدة ولا اتنين بس لاحسن أتخن".

"تتخني. هو إنت فيك لحم خالص! أصب لك الشاى معاه. خديلك كمان حتة جبنة ولا شوية عسل على سلطانية الزبادى دى". حملقت فى وجهها. "باين عليكى تعبانة. هو فيه إيه"؟

"مفيش حاجة يا ماما".

"لا.. فيه.. هو أنا مش عارفاكى يا "نور". دانا ربيتك من يوم ما كنت جد كده"، ورفعت يدها فى الهواء قرب صدرها.

"أصله.. أصل بكره حاروح أزور "عزيز المغربي" فى "سجن أبو زعبل".

ضربت بكفها على صدرها وقالت:

"يا ندامتي!.. "سجن أبو زعبل"!. ليه هو جتل جتيل"؟!

ضحكت.

"لا.. حاجة سياسية يا ماما".

"مش جلتلك يا بنتي؟ ابعدى عن بتوع السياسة دول".

"لكن بأحبه يا ماما، وهو إنسان كويس جوى".

احتضنتها دون أن تعلق. تنبهت أنها لم تتناول شيئًا من الأطباق الموضوعة أمامها. قالت:

"طب كلى حاجة يابنتي، لجمة كدا ولا كده"، ودفعت أمامها بسلطانية من الفخار مليئة باللبن الزبادى. "كل شيء جسمة ونصيب. تحبى آجى معاك. أعرف سواج تاكسى ياخدك ويجيبك وأنت مرتاحة، وممكن نروح سوى. اسمه "محمدين" وأعرفه من زمان جوى".

"لا.. مفيش داعى تيجى معايا. حاروح لوحدى. بس ابعتيلى سواج التاكسى أتفج أنا معاه".

"لع. حأتفجلك معاه آني. عايزاه الساعة كام بكره"؟

أحست بالسيارة توقفت. التفت إليها السائق وقال وهو يشير بيده إلى جدار عال تعلوه أسلاك شائكة:

"سجن أبو زعبل" أهو يا ست هانم".

أحست بقلبها ينبض. قالت: "ما تجرب عليه شوية يا سطى".

قال:

"ده ممنوع يا ست هانم. حاركن فى الحتة دى وأنت أوصلى على رجليك حد البوابة اللى هتدخلى منها".

دارت بعينيها حول المكان قبل أن تهبط من السيارة. بالقرب من البوابة الضخمة رأت أعدادًا من النساء والرجال واقفين كأنهم ينتظرون شيئًا. كانوا يحملون أكياسًا من القماش أو "البلاستيك"، وكان مع بعضهم أطفال. اقتربت بخطوات بطيئة ثم شقت طريقها بينهم. تتبعتها نظرات فيها فضول كأنهم أحسوا من الملابس التى كانت ترتديها، ومن شكلها أنها ليست منهم. أفسحوا لها الطريق إلى أن أصبحت قريبة من البوابة بدت لها أكثر ضخامة مما رأته عن بعد، رمادية اللون مقوسة عند أعلاها. بين الحين والآخر كان ينفتح فيها باب يشبه النموذج المصغر منها، ويعلو جزؤه الأسفل عن الأرض بحيث يضطر الداخل أو الخارج إلى رفع قدميه فوقه لتخطيه، ويُطل منه رجل يرتدى بزة عسكرية كاكية اللون، مغلقة بأزرار من النحاس، وله شارب كبير مبروم عند الأطراف. سمعته يزعق. "يا ولاد الكلب ابعدوا عن البوابة" قبل أن يفسح الطريق لرجل يرتدى لباسًا من الكتان الأزرق، ويسير ويديه موثقتين بالحديد فى يد الشرطى المصاحب له.

تسللت بين الواقفين لتقترب من الرجل الذى أدركت أنه حارس البوابة، ثم دست فى يده ورقة بعشرين جنيهًا، وبطاقة صغيرة تحمل اسمها. حملق فيها بعينيه الصغيرتين وسألها:

"عايزه إيه"؟

قالت:

"عايزة أجابل الرائد "على حجازى".

قال:

"خليكى واجفة هنا. أنت اسمك إيه"؟

"اسمى "نور سلمان".

مرت الدقائق بطيئة ثقيلة. حاولت أن تنشغل بالفرجة على الناس، بجمل كانت تلتقطها من هنا، وهناك: "كل الحكاية حتة حشيش جد

عجلة الصباع وخد فيها تأبيدة.. أمال الطرب اللى بيفوتوها للناس اللى فوج..". "المحامى بيقول الدايرة دى وسخة. وعايز يأجل عشان تتحول القضية على دايرة تانية". "إنت يا ست إيش جابك وإنتى تعبانة كده؟" فترد امرأة عجوز بصوتها المرتعش: "ما ليش غيره يا بني".

أخيراً فُتح الباب الصغير، وأطل منه الحارس الذى تحدثت إليه. دار بعينيه حول الواقفين إلى أن لمحها. أشار لها فأسرعت ودخلت رافعة الثوب الطويل الأسود الذى كانت ترتديه إلى أعلى لتتخطى حاجز الباب، أغلقه وراءها وطلب منها أن تنتحى جانبًا، فوقفت تنتظر. على مقربة من البوابة كانت توجد حجرة صغيرة معتمة جلس فيها ضابط خلف مكتب من الصاج مادًا ساقيه تحته. عندما لمحها ابتسم وهز رأسه كأنه يعرفها. استدارت وأعطته ظهرها. اقترب منها حارس على كم سترته شرائط حمراء، وسألها. "أنت "نور سلمان". قالت: "نعم". قال "امضى هنا"، مشيراً بإصبعه المنتفخ الخشن إلى دفتر كبير وُضع على رف من الخشب، فوقعت فى المكان الذى أشار إليه. نادى على حارس شاب وأمره: "خد الست دى للرائد "حجازى".

اجتازت الحوش سائرة إلى جواره. فى الحوش عدد من الرجال يرتدون قمصانًا طويلة وبنطلونات واسعة لونها أزرق، توزعوا فى أركانه. كانوا يكنسون الرمل الأصفر الذى يغطى أرض الحوش بحركات بطيئة ملولة مستعينين بأعواد من سعف النخيل، ملقين بنظرات متلصصة إلى المبنى المنخفض الذى كان الحارس المصاحب لها يقودها إليه. وصلا إليه فانحنى بها إلى غرفة كان بابها المفتوح يكشف عن ضابط جلس خلف مكتب من الخشب وانهمك فى فحص ملف. عندما دخلت رفع رأسه ونظر إليها. توقف الحارس وأدى التحية العسكرية. قال الضابط دون أن يلتفت إليه: "روح أنت"، ثم سألها:

"حضرتك السيدة "نور سلمان"؟

قالت:

"نعم..".

اتفضلي، اجلسي".. مشيراً إلى كنبة من الجلد موضوعة قرب الجدار.
"حضرت لزيارة النزيل "عزيز المغربى" أليس كذلك"؟

قالت:

" نعم".

صمت قليلاً، ثم قال:

"كنا نود أن نخدمك فى سعيك هذا. لكن..."، أمسك بقلم وأخذ يُديره بين أصابعه. أحست بقلبها يسقط. ظلت صامتة تنظر إليه. "حدث ما لم يكن متوقعًا".

خطر فى بالها، لماذا يعذبني؟ فيلقل ما عنده.

"النزيل "عزيز المغربي" رفض زيارتك له".

"رفض"؟!

"نعم. قال إنه لا يعرف لماذا تريدين زيارته حيث إنه لا توجد بينكما أية صلة تتعلق بالقرابة أو بغيرها".

أحست بجسمها باردًا كالثلج رغم حرارة الجو. قالت:

"حضرتك متأكد"؟

"طبعًا.. لو لم أكن متأكدًا لما قلت لك هذا. أبلغنى بذلك شخصيًّا". ألقى نحوها بنظرة فاحصة من عينيه الزرقاوين. ضغطت أصابعها على الحقيبة التى كانت تحملها. سألها:

"هل يُمكن أن أحضر لك كوبًا من الشاى، أو الليمون"؟

قالت:

"لا.. أشكرك". ووقفت.

قال:

"أنا آسف ما بيدنا حيلة. لحظة من فضلك". ودق على جرس مثبت فى مكتبه، فظهر الحارس الشاب وأدى له التحية.."وصل الأستاذة للبوابة". ثم قام وسلم عليها.

"مع السلامة".

خرجت من الباب لكن قبل أن تواصل سيرها أوقفها صوته:

"يا أستاذة.. يا أستاذة نسيت العلبة التى كانت معك". .

توقفت ثم استدارت قليلاً. قالت دون أن تلتفت وراءها:

"لا أريدها. أعطها لأحد المسجونين".

اجتازت الحوش وخرجت من البوابة دون أن تدرى كيف. سمعت صراخ المفاتيح وصوت الباب يفتح ثم يغلق. بحثت عن السيارة إلى أن اهتدت إليها. كان السائق قد أوقفها فى ظل شجرة ووقف تحتها يُدخن. عندما اقتربت منه ألقى بالسيجارة جانبًا. نظر فى وجهها وهى تدخل. أغلق الباب ثم ركب بدوره. أدار المحرك وطوال الطريق قاد سيارته دون أن يقول شيئًا.

***

الفصل الخامس والعشرون

كانت تتأهب للنوم عندما دق جرس التليفون. نظرت إلى الساعة الموضوعة إلى جوار سريرها قاربت على الواحدة صباحًا. أحست بالضيق. من يتصل بها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ قررت ألا ترد، ثم غيرت رأيها. ربما حدث شيء "لأم هاشم". صحتها صارت تتدهور فى الأسابيع الأخيرة.

أسرعت إلى حجرة المعيشة ورفعت سماعة التليفون. سمعت صوتًا يقول:

"أنا أسف إذا كنت بأتكلم متأخر كده. لكن الحقيقة ما قدرتش أستنى لبكرة عشان أقولك إنك الليلة كنت فى دورك أروع من أى مرة قبل كده".

قالت:

"مين حضرتك"؟

قال الصوت:

"بقى ده معقول.. تنسى أصدقائك بالسرعة دى. هو النجاح بيعمل كده فى الناس. والا عشان كنت شرموطة، والشرموطة تفضل شرموطة

طول عمرها. أظن بتفكرى تقفلى التليفون. لا يا حلوة المرة دى الخط بينك وبينى حيفضل مفتوح".

سمعت ضحكة ناعمة تشبه صوت القط المسرور، فأدركت. قال

"عرفتينى واللا لسه. أنا محسوبك "نبيل عطا الله".. جى اخد حقي. مش برضه إحنا اللى فتحنا لك السكة. هو انت من غيرنا كنت حتساوى حاجة، واللا كنتى حتوصلى للى وصلتيله. اللى أنا بأستغرب له إنك عايشة فى "المنيرة". إنت بخيلة واللا إيه"؟

قالت:

"عايز كام"؟

قال:

"أهو أنا بقى حازعل منك. إنت بتنسى أصدقائك لكن أنا مش كده.. إنت محتاجة حد يدور على مصلحتك، ويوريك تستفيدى مى اللى وصلتيله إزاى. حد مخلص كده يقف جنبك ويحميك من ولاد الحرام. ده لسه إمبارح كنت قاعد فى "الهيلتون" مع رئيس تحرير جورنان "الوطنى الحر". حكالى عنك حاجات أنا نفسى ما عرفهاش. قال لي: إحنا بنعمل عن "نور سلمان"، قصدى "نور عسران" موضوع قنبلة. وآدى دقنى إن ما بعناش مليون نسخة. قلتله يا راجل حرام عليك، اتق الله. حد يعمل كده فى ممثلة مصر الأولى. يعنى افرض إنها غلطت فى حاجة والا اتنين، ما إحنا كلنا بنغلط".

قالت:

"عايز إيه"؟

"شوفى يا ستي، أهم حاجة عندى إن إحنا نبقى أصحاب، لا أنا أزعل منك ولا إنت تزعلى مني. أنا أدور على مصلحتك، وأنت تدورى على

مصلحتي. يعنى نبقى شركا. وأنا زى ما قلتلك عندى اتصالات فى كل حتة، وواصلة لفوق قوى. لو اشتغلنا سوا حخليكى ملكة، والأمرا دول وأصحاب السعادة يبوسوا رجليكي. حخليكى تعرفى كلمة فلوس دى معناها إيه، ومش فلوس بس. إنت فاكرة نفسك مشهورة. لا.. دا أنا حخلى صورتك تدخل كل بيت".

قالت:

"عايز إيه"؟

"عايز إن إحنا نتفاهم. وعشان نتفاهم لازم نتقابل. وأنا واثق إننا المرة دى حنتفق".

ظلت صامتة. قال:

"هه.. قلتى إيه"؟

قالت:

"إمتى وفين"؟

سمعت صوت زفيره فى السماعة.

قال:

"فى "هيلتون النيل" فى الكافيتريا. عندى ترابيزة بعد الباب بشوية بيحجزوها لى كل يوم مى الساعة تمانية مساءً. حتلاقينى قاعد مستني. أظن حتعرفيني، ماتغيرتش كتير".

قالت:

"أيوه حأعرفك".

قال:

"وهو كذلك. تصبحى على خير ياست "نور".

أعادت السماعة إلى التليفون. ظلت واقفة لحظة طويلة، وفجأة أحست أن عقلها أصبح صافيًا كالبلور. ذهبت إلى المطبخ وصنعت لنفسها قدحًا من "النسكافيه". عادت به لتجلس على الكنبة الموضوعة أمام التليفزيون.

فى الصباح اتصلت بـ"أم هاشم". قالت لها

"يا ماما.. حأفوت عليكى بكرة فى المسا الساعة ستة. إنت فاكرة إنه كان عندى عباية سودا الظاهر نسيت آخدها لما عزلت من عندك. حاجى أخدها، وأجعد معاك شوية. آه وحاجة تانية. تجدرى تتفجى مع الأسطى "محمدين" إنه يجيلى بعد بكره يعنى الأربع الساعة السابعة الصبح"؟

قالت:

"آه طبعًا يا بنتي. لكن إنت عايزاه ليه"؟

"أبدًا عندى شوية مشاوير حأعملها".

أغلقت الخط. أخذت رشفة من القهوة. فتحت دفترًا كان يرقد على منضدة التليفون وقلبت فى صفحاته. توقفت عند أحد الأرقام المسجلة فيه. رفعت سماعة التليفون وطلبت الرقم. جاءها صوت رجل يقول:

"نعم".

قالت:

"استعلامات السكة الحديد"؟

قال:

"نعم".

قالت:

"من فضلك مواعيد قطر الصعيد السريع".

***

الفصل السادس والعشرون

تجمعت السحب رمادية اللون قاتمة تنذر بهطول المطر. أحست بالبرودة تنفذ إلى عظامها فأحكمت العباءة الصوفية حولها قبل أن تهبط من سيارة الأجرة التى حملتها من محطة "سوهاج" إلى قرية "الصوامع". دخلت من البوابة الخلفية فتحها لها الحارس العجوز ملْقيًا إليها بنظرة سريعة من عينيه الصغيرتين سقطت رموشهما. اجتازت الحوش سائرة على مهلها إلى جوار الطلمبة أصابها الصدأ وجفت المياه فى حوضها الأسمنتى المستطيل. توقفت لحظة عند الزريبة انهار جدارها قرب الباب، وسقط جزء من سقفها. واصلت سيرها أمام الباب المفتوح لعشة الفراخ الخالية ارتفع منه أنين خافت كلما حركته الريح. دلفت من باب الدوار وخطت فوق أحجار القاعة الخارجية الخشنة، فعلا صوت كعب حذائها فى الصمت. صعدت السلالم متفادية أجزاء منها انكسرت وأصبحت أطرافها بارزة. عبرت الصالة الكبيرة تمزقت فيها الأغطية البيضاء للكتب، وتعمقت الشروخ فى جدرانها. توقفت لتلتقط أنفاسها. ألقت نظرة إلى عروق السقف تقوس خشبها وتآكلت حيث قرضتها الفئران. اتجهت إلى الطرقة المبلطة

ناحية اليمين وتوقفت عند باب. سمعت أصواتًا خافتة تأتى من ورائه. دفعته ودخلت.

فى السرير الكبير كانت ترقد جدتها. لم تر منها سوى وجهها يطل من أعلى اللحاف الذى تغطت به. بدا لها مثل وجه المومياء، جلده فى لون ورق البردى القديم. إلى جوارها كانت تجلس امرأة ترتدى جلبابًا أسود، وشالاً كبيراً لفت به رأسها فلم تر منها سوى أنف يبرز فى المساحة التى تركتها مكشوفة من وجهها. اقتربت من السرير ووقفت فى الناحية المقابلة لها، فالتفت الوجه الراقد على الوسادة ظهرت عليها بقعة بنية اللون. مالت عليها وقالت:

"ستى "عيشة". أنا "نور".

نظرت إليها عيناها الغائرتان وسط التجاعيد. همست المرأة الراقدة بصوت ضعيف كادت ألاَّ تسمعه فاقتربت من وجهها:

"إنتى جيتى يا "نور"؟ جعدت مستنياكي. جلت مش عايزة أموت إلا لما تيجى "نور".

أحست بالدموع فى عينيها تفور فنطرتها بعيدًا بحركة من يدها. خلعت العباءة فقامت المرأة الجالسة ومدت إليها يدها. أخذتها منها ثم سارت نحو الباب، لكن قبل أن تخرج من الغرفة أشارت إليها فعادت. سألتها

"إنت مين"؟

قالت

"أنا أم بهية يا ست "نور".

رمقتها ثم قالت:

"خليك بره يا "أم بهية" حأعوزك".

قالت:

"حاضر ياست "نور".. خير إنك جيتي. كانت طول الوجت بتجول فين "نور"؟.. فين "نور"؟

استدارت فلمحت الشفتين الرفيعتين تتحركان فى الوجه العجوز بحركة بسيطة. مالت على المرأة الراقدة فى السرير من جديد ووضعت أذنها قرب فمها. التقطت الكلمات بصعوبة.

"خدينى فى حضنك".

خلعت حذاءها ورقدت إلى جوارها. دست ذراعها تحت رأسها بحرص، وأسندته على صدرها. سمعتها تهمس:

"جلت.. "نور" زعلانة مني".

قالت:

"زعلانة منك يا ستى "عيشة". دانى ما حبيتش حد زى ما حبيتك".

تحركت الشفتان فيما يشبه الابتسام. أخذت نفسًا طويلاً كأنها تستجمع قواها لتنطق الكلمات ثم همست:

"وجتى جه.. ربنا بيناديلي.. بس يا "نور"..."، بذلت جهدًا لتخرج الكلمات المرتعشة من صدرها:

"مش عايزة صَويت لما أروح له".

اتسعت عيناها كأنها رأت شيئًا يحوم أعلاها. مالت برأسها على جانب. انتفض جسمها مرتين ثم سكن، وبالتدريج زحف على عينيها ما يشبه الغطاء الزجاجي. انتظرت ثم أدخلت يدها تحت اللحاف وتحسست صدرها مكان القلب. لم تشعر بشيء فسحبتها. مالت عليها وألصقت

شفتيها على جبهتها كأنها تودعها، فأحست بملمسها باردًا. غطت وجهها باللحاف وخرجت من الغرفة. وجدت "أم بهية" جالسة على الكنبة. وضعت إصبعها على شفتيها لتنذرها بضرورة الصمت واقتربت منها. ربتت على كتفها وقالت:

"تعيشى إنت يا "أم بهية". ستى ماتت. بس مش عايزة أسمع صوتك.. فاهمة"؟ أزاحت "أم بهية" الشال الملفوف حول رأسها وشهقت، ثم أخذت الدموع تسقط من عينيها.

"مش عايزين لا عياط ولا صويت. روحى لعمى "عنتر" دلوكيتى وبلغيه. هو فين"؟

قالت:

"جاعد بيشرب السخام بتاعه فى بيته".

صمتت لحظة ثم قالت:

"أمال مين اللى حيعمل اللازم يا "أم بهية". آنى ما أعرفش حد هنا".

قالت:

"ما تعنيش هم يا ست "نور". جوز بنت أختي بيشتغل فى الوحدة. حشيعله يجابل عمك "عنتر" دلوكيتي، ونخلص كل حاجة، وبكره الصبح إن شاء الله حجيب اللى يغسلوها، ويلفوها فى الكفن اللى إنت تريديه عشان تندفن. مش حجول حاجة لحد النهاردة واصل. اللى حيحضر الدفنة ولاّ يعزى ييجى بكره. حاروَّح آنى بسرعة عشان ألحج أجابل جوز بنت أختي.. مش عايزة حاجة"؟

قالت:

"لا شكرًا".

عادت إلى غرفة النوم. اقتربت من السرير وأنزلت الغطاء من على وجهها. كانت عيناها مفتوحتين كأنها تنظر إليها فبدت كأنها ما زالت تريد أن تقول شيئًا. أغلقت جفونها بطرف أصبعها، ثم جلست على السرير تحملق في الوجه الضامر المتغضن أخذ يتغير لونه ليُصبح أكثر سمرة.

***

الفصل السابع والعشرون

حضرت "أم بهية" منذ الصباح الباكر ومعها امرأة شابة قالت إنها حفيدة أختها، وبعدها توافدت أعداد من النساء المتشحات بالسواد، فخطر فى بالها أنهن تشبهن أسرابًا من الغربان. كانت تنتظرهن جالسة على حافة الحوض الأسمنتى الممتد أسفل الطلمبة. كلما دخل فوج منهن من البوابة كن يبدأن بالصراخ واللطم، والبكاء بأعلى صوت، فقضت الساعة الأولى وهى تزعق:

"ستى "عيشة" جالتلى مش عايزة صويت ولا لطم. سامعين ولاّ حطردكم. اللى مش عاجبها تروَّح"، فتلاشت الأصوات فى الحال. أصبحن تتحدثن مع بعضهن بالهمس، فشاع بين الناس أنه لأول مرة فى "الصوامع" تحدث وفاة ويتم الدفن والعزاء فى صمت.

بعد أن انتهى كل شيء وغادر جميع المعزين من النساء الدوار جلست وحدها فى الصالة التى تعودت ستها "عيشة" أن تبقى فيها بعض الوقت قبل أن تأوى إلى فراشها، وفى لحظة من اللحظات رأتها واقفة أمامها تطل عليها من أعلى وهى باركة على الأرض عند قدميها. ظلت الصورة

عالقة بذهنها إلى أن قامت وذهبت إلى الغرفة التى باتت فيها الليل. ثم ذهبت إلى الحمام. قامت بتسخين صفيحة من الماء واغتسلت. لفت جسمها ببشكير أبيض كبير. بحثت عن العباءة فوجدتها مطوية على صندوق من الخشب كانوا يضعون فيه الملابس القديمة عندما كانت طفلة. ارتدت جلبابًا طويلاً مغلقًا عند العنق وفوقه العباءة، وعندما سقط الظلام هبطت على السلالم ممسكة بكلوب أوقدته "أم بهية" قبل أن تنصرف عائدة إلى بيتها. اجتازت القاعة الخارجية ووضعته قرب الباب قبل أن تخرج منه وترده وراءها دون أن تُغلقه.

كانت الرياح قد طردت السحب المتراكمة، فأصبح الليل صافيًا، وأضاء القمر الحوش بأشعته. أحكمت العباءة حول جسمها وسارت. جاءها نعيق البومة عششت أعلى شجرة الجميز العتيقة كادت تتعرى أغصانها فيما عدا الجزء الأسفل منها، فأصبحت كالأصابع السوداء ترتفع فى السماء تطلب من الله غفرانه. تكرر النعيق مرة ثانية، وثالثة ورابعة. سارت دون أن تتوقف أو تلتفت. عندما اقتربت من بيت "عبد الجابر" أسرعت الخطوة. تركت الحذاء الذى كانت ترتديه عند أسفل السلم، وصعدت الدرجات إلى الشرفة على قدميها الملفوفتين فى جوربين من الصوف. نقرت على الباب نقرتين ترددتا فى الليل الصامت. بعد قليل سمعت صوتًا يسأل:

"مين اللى بيخربط"؟

قالت:

"أنا "نور".

ساد الصمت من جديد لمدة بدت طويلة، تلاه صوت أنفاس، ثم فُتح الباب وظهر جسم بدا كالشبح فى الضوء الضعيف المنبعث من ورائه. قال الشبح فى صوت مشروخ ممطوط المقاطع:

"يعنى فكرت تزوريني.. يا بنت أخوى.. فيكى الخير. تعالى سلمي..."، وخطا إلى الأمام خطوتين ليراها. لم يكمل الجملة. أخرجت يدها المحاطة بقفاز من جيب العباءة حاملة شيئًا طويلاً. رفعته فوق كتفها ثم دفعته إلى الأمام أسفل رأس الشبح الواقف فى منتصف الباب. ارتفعت منه صرخة مكتومة، وصوتًا كالحشرجة. رفعت السكين مرة ثانية، ومرت بسلاحه على عنقه قبل أن يرتمى جسمه بحركة بطيئة ليسقط على مسند المقعد القريب من الباب.

أمسكت بالقدمين العاريتين وجرته إلى الداخل، ثم أغلقت الباب وراءها. خرجت من البوابة الأمامية واجتازت المدك الترابي العريض لتصل إلى الترعة. ألقت بالسكين الذى كانت تحمله بعيدًا فى المياه وعادت أدراجها. ردت البوابة دون أن تغلقها بالقفل من الداخل. اجتازت الحوش ودخلت إلى الدوار وبعد الفجر بقليل كانت تقف قرب كشك لبيع السجائر، والحلويات مرتدية ملابس فلاحة مخفية وجهها فى شال لونه داكن.

بعد قليل جاءت سيارة للأجرة لتحمل الركاب الذين كانت تنتظر بينهم مسافة الخمسة وعشرين كيلومترا التى تفصل بلدة "الصوامع" عن محطة "سوهاج".

***

خاتمة

انتهى عرض الفيلم وتوالى ظهور التترات على الشاشة. ظل جالسًا فى مقعده، مستغرقًا فى موسيقى البيان كأنه لا يريد أن يفيق مما رآه.

أُضيئت الأنوار وانصرف الجمهور فرآها جالسة وحدها فى الجانب الآخر من الصالة. قامت وهبطت الدرجات على مهلها قبل أن تخرج من الباب. وقف ثم هبط وراءها كأنه تنبه إلى شيء. لمح قوامها مثل زهرة اللوتس، وشعرها الطويل اختلط فيه السواد بجداول من الفضة تبرق فى الأضواء. شيء فى أعماقه يقول إنه يعرفها، ذكرى حميمة، قوية من الماضي، ذكرى لم ينسها طوال السنين المتوالية من حياته. أسرع الخطوة ليلحق بها. وجدها واقفة على الرصيف كأنها تتردد فى اجتياز الشارع. وقف إلى جوارها ونظر إليها فاستدارت كأنها أحست بعينيه تلمسان وجهها.

قال:

"أين أنت ذاهبة يا "نور"؟

حملقت فيه لحظة ثم قالت:

"فكرت أن أتنزه قليلاً على شاطئ النيل. لم أفعل هذا منذ سنين".

قال:

"وأنا كذلك".

ابتسمت:

"هل تسمح لى بأن أستند على ذراعك ونحن نجتاز الشارع. عندى ألم بسيط فى ساقى اليسرى".

أبعد ذراعه عن جسمه قليلاً فلفت أصابعها حولها.

قال بصوت تسلل إليه القلق:

"لاحظت وأنا سائر وراءك أن عندك عرجة خفيفة".

قالت:

"سقطت مرة على المسرح فى "ريودى جينيرو."

قال:

"إنها تُضفى عليك جاذبية خاصة".

قالت:

"هيا نجتاز الشارع. السيارات خف ازدحامها".

عبرا الشارع، وسارا على رصيف الشاطئ متشابكا الأيدى، وعلى النيل تلألأت أضواء الفلائك.

* * *

مؤلفات شريف حتاتة

روايات :

١- العين ذات الجفن المعدنى	دار الطليعة	١٩٧٣
	دار الثقافة	١٩٨٣
٢- الهزيمة	دار الطليعة	١٩٧٨
٣- الشبكة	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	١٩٨١
	دار الثقافة	١٩٩٠
٤- قصة حب عصرية	دار الآداب	١٩٨٤
٥- نبض الأشياء الضائعة	دار الآداب	٢٠٠١
	دار المحروسة	٢٠٠٨
٦- عمق البحر	دار ميريت	٢٠٠٢
٧- عطر البرتقال الأخضر	دار الهلال	٢٠٠٦
٨- ابنة القومندان	دار ميريت	٢٠٠٨
٩- الوباء	دار ميريت	٢٠١٠

سيرة ذاتية :

١- "النوافذ المفتوحة" الجزء الأول	دار نشر مدبولى	١٩٩٣
الجزء الثانى	دار الثقافة	١٩٩٥
الجزء الثالث	دار النهر	١٩٩٨
٢- "النوافذ المفتوحة" طبعة كاملة	دار ميريت	٢٠٠٦
٣- "النوافذ المفتوحة" طبعة كاملة	الهيئة العامة للكتاب	٢٠١١

مذكرات:

تجربتى فى الابداع	دار الثقافة الجديدة	٢٠٠٠
في الأصل كانت الذاكرة	الأهالي	٢٠٠٢
يوميات روائي رحال	دار المحروسة	٢٠٠٨

أمسكت بالقدمين العاريتين وجرته إلى الداخل، ثم أغلقت الباب وراءها. خرجت من البوابة الأمامية واجتازت المدك الترابي العريض لتصل إلى الترعة. ألقت بالسكين الذي كانت تحمله بعيداً في المياه وعادت أدراجها. ردت البوابة دون أن تغلقها بالقفل من الداخل. اجتازت الحوش ودخلت إلى الدوار وبعد الفجر بقليل كانت تقف قرب كشك لبيع السجائر، والحلويات مرتدية ملابس فلاحة مخفية وجهها في شال لونه داكن. بعد قليل جاءت سيارة للأجرة لتحمل عدداً من الركاب مسافة الخمسة وعشرين كيلومترا التي تفصل بلدة «الصوامع» عن محطة «سوهاج».

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات